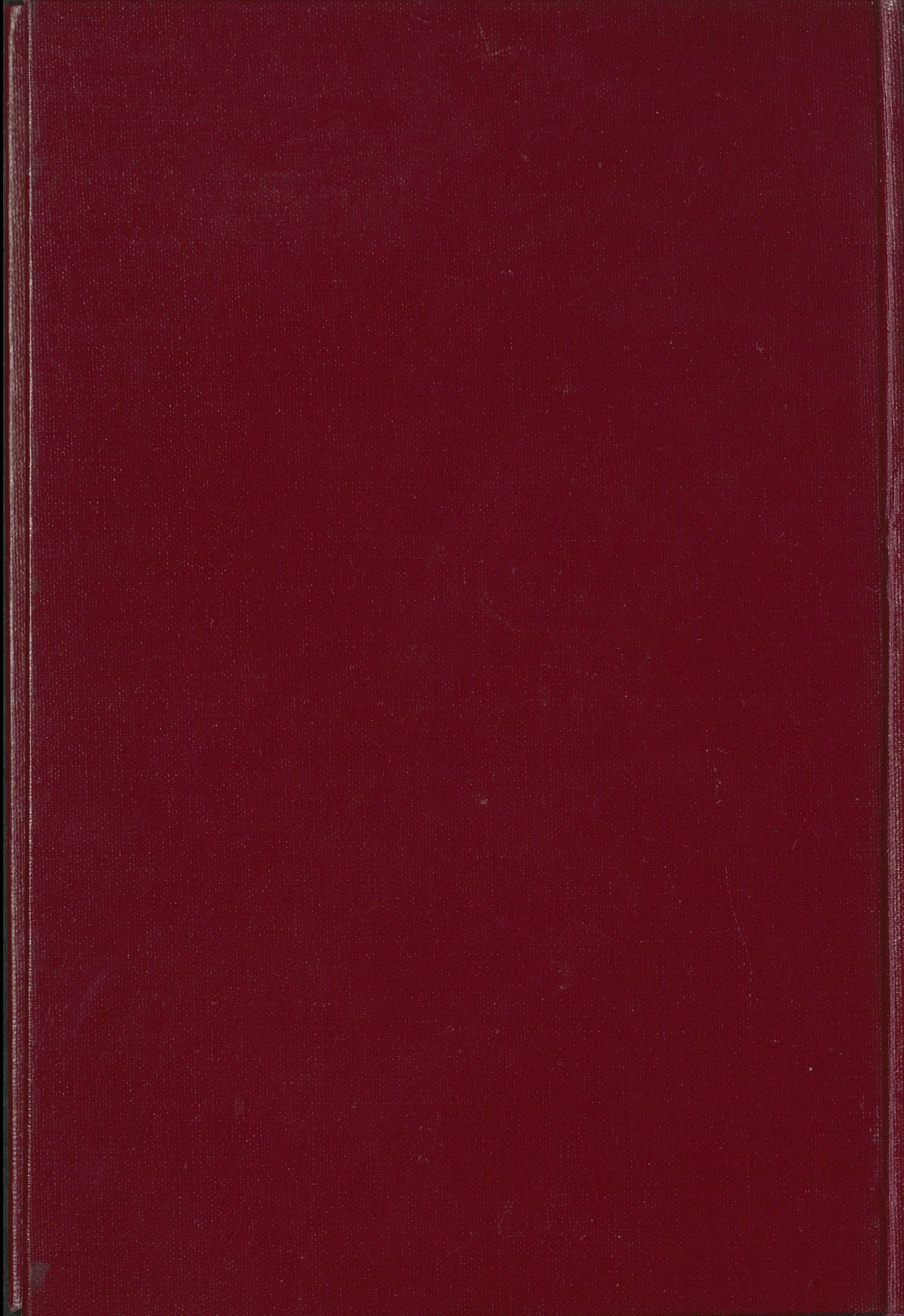


A.U.B. LIBRARY



المحمديات

ماذا يجب ان تعرف ؟
عن
محمد والاسلام

للكاتب المعروف دبسون ديسون

تخيره وعربه عن الافرنسية

عمر أبو النصر

المكتبة الأهلية
في بيروت
للطبع والترجمة والتاليف والنشر



نشيد محمد

او — فيض الاسلام

«انظر الى ينبوع الجبل يضطرب ، لميئا صافيا ، كأنما هو شعاع دري فوق السحب ، ارضعت ملائكة الخير طفولته في مهده يوم كان بين افلاق الصخور المعشوشبة .

انه ينحدر من السحابة فتيا نقياً ، ثم ينتزى منها جذلان فرحا ...

انه يسير في الاخاديد الوعرة جارفا امامه من الوان الحصباء مالا يحصى ، ساحبا في اثره اخوات من العيون الثرارة ، كانما هو مرشدها الامين وحاميها القوي .

واما في الوادي فالرياحين تنبثق عند قدميه ، والمروج تحيا من انفاسه ، لا يثنيه الوادي الظليل ، ولا الرياحين التي تطوق ساقيه ، وتحاول ان تسبيه وتستهويه بلحاظها الفواتن ، بل يصمد في اندفاعه متسلسلا متعرجا الى فضاء السهول

وتبادر اليه الجداول تؤيده ، فيدخل السهل لامعا كاللجين فيتلألأ السهل بلألائه ، وتطفر طربا انهار الوهاد ، وجداول الارض ، وتهيب به قائلة : « يا اخي خذ معك اخوتك وامض بها الى ابيك الشيخ ، الى البحر المحيط ، الازلي ، الذي يترقبنا باسطا ذراعيه ... وهو وا أسفاه لطالما بسط ذراعيه

بلا جدوى ليضم اليه بنيه البعداء. ونحن في البيداء الجدباء تبتلعنا الرمال المحرقة ، وتشفي الشمس غليلها وهي في كبد السماء من دمائنا ، ولا يستوقفنا في طريقنا غير الكثيب نستجيل عنده الى غدير ، يا اخي خذ معك اخوتك وامض بهم الى ابيك » ...

ـ تعالوا جميعاً .

وها هو العباب طاما زاخراً ترفده الروافد ، فيخلع في مجراه على الامصار اسماءها ، وتنشأ عند اقدامه المدن ، بيدانه لا ينثني ، فلا يبرح هادراً بتدفع ، لا يثنيه ابداً ثان ، مخلفاً وراءه المنائر والصروح ، نتاج خصبه وانتاجه

وانه ليقل فوق مناكبه الجبارة منشئات السفن تخفق الالوف من قلوعها فوق رأسه ، وتهفو مشرعة نحو السماء شاهدة على قدرته وجلاله .

وهكذا يمضي باخوته وكنوزه وبنيه نحو ابيه الذي ينتظره ويتلقاهم بصدره ، وهو فرح طروب .

غوتي
اكبر شعراء الالمان

هذا النشيد طبع لاول مرة على صورة مقطعات يتناوب انشادها علي كرم الله وجهه ، وزوجه فاطمة بنت الرسول عليه السلام ثم عاد الشاعر فنشره في ديوانه غير مقطع الى حوار ، وجعل عنوانه نشيد محمد ، وهو يصف به سرعة ذيوع الاسلام وانتشاره في اقطار العالم

بسم الله الرحمن الرحيم

حول المادية الغربية والروحية الاسلامية

هذه سلسلة بحوث رأينا ان نتوفر على تخيرها من مختلف المؤلفات الغربية ليطلع العرب عامة والمسلمون خاصة على آراء كتاب الغرب وكباره في نبيهم ودينهم وعقائدهم وتقاليدهم ، وليعلموا ان هناك في الغرب كتاباً يضطرب الاخلاص في قلوبهم ويسير الصدق في ما يتوفرون على نشره وطبعه من خلفهم ومن قدامهم ، واذن فليس يصح ان نتهم الغرب كله بسوء النية والكذب في ما يتصل ببحوثه الاسلامية او الشرقية ، فان الحياة والمستقبل للحقيقة ، مهما سعى الساعون ، وعمل العاملون لتشويه رسومها ، واخفاء آثارها

وشيء آخر ايضاً هو اننا نحاول في بحوثنا هذه ان نخفف — ما كان الى ذلك سبيل — من اثر الكراهية التي اثارتها كتابات بعض الغربيين عن الاسلام والمسلمين في قلوب المسلمين ، وهي

كراهية تناولت الحضارة الغربية وما فيها من الوان نعلم انها تنتظم في الحسن والسيء والصالح والطالح، وان فيها خيراً كثيراً، من الحق ان نتوفر على الاستفادة من محاسنه كما توفر الغرب في سابقات الاعوام الى الاستفادة من محاسن الحضارة العربية يوم كانت هذه تغمر العالم نوراً وعلماً وثقافة وحياة .

***

ولشد ما يؤلمنا هذا التباعد السياسي الذي يضطرب في العالم جماعاته وافراده ، فلا يسمح لهذه الحقيقة الروحية الجميلة اللذة التي نعمل على تصويرها في هذه (المحمديات) بالتبسط والاستبحار في كل الافئدة والقلوب ، ونحن في الواقع لسنا من المبشرين بالمعنى الذي تعنيه هذه الكلمة في العصر الحاضر ، لان المبشر قد يكون ايضاً من اولئك الذين يروجون لبضاعة ليس هو نفسه على يقين من صدقها وحسنها وفائدتها ، وانما نحن طلاب حقيقة ، ورواد معرفة ، ونحن نعتقد بحق ان هذه المعرفة والحقيقة موجودتان في هذه (المحمديات) ونحن على ثقة من ان هذه المحمديات نفسها تنتظم في روحانية لا يظفر بها الكثيرون ، وان هذه الروحانية هي ما يريده العالم ، بل هذا ما هو بحاجة اليه ، يخفف بواسطتها عن نفسه ما يلم به من الشكوك ، وما يضطرب في قلبه من الالم بسبب هذه المادية التي غمرت العالم من اقصاه الى اقصاه وشردت بين جماعاته

تشريداً كثير الخطر بعيد المصاير

والمادية هنا عامة لا خاصـة ، فهي تتناول الدين والسياسة والتجارة والتأليف والثقافة والادب والحضارة وغير ذلك ، مادية ممضة شريرة تفتك بالشرق فتكاً عظيماً ، وتعمل على استئصال روحيته وتبديد جماعاته ، واستعباده في كل مرافق الحياة ، وهي الى ذلك تثير الاحقاد ، وتنفث السموم ، وتثير الكراهية بين الامم والجماعات ، وهو امر يخشى منه على الحضارة الغربية القائمة التي راح يزعم البعض انها قد آذنت بالافول ، وانها تخطت جانب الصعود ، واخذت بالانحدار والتدهور

يقول بعض المؤلفين ان تهدم الحضارة الشرقية كان من اقوى العوامل في بث هذه الكراهية الشرقية للغرب وماديته ، واغرب من ذلك ان نرى الشباب الشرقيين انفسهم الذين تثقفوا في مدارس الغرب وجامعاته اذا ما عادوا الى بلادهم وامصارهم راحوا يحملون على الغرب ومذاهبه في السياسة والاخلاق والدين والتجارة وغيرها ، وان كانوا لا ينكرون ان حرية الفكر يجب ان تكون قبلة ومصلى لكل رواد المعرفة ، وانه يصح ان يكون الحكم على المادية الغربية الحاضرة وفاقاً للانصاف والعدل

والواقع اننا برجوعنا الى الروحية الشرقية الاسلامية وباعتمادنا انوارها في ما نحاول الترويج له من حضارة عربية شرقية ، نحاول

امراً اخذ الشرق نفسه يلم به بعض الالمام ، وراح رجاله و كباره يفكرون به جد التفكير ، فان في العودة الى هذه الروحية الشرقية التي ما يزال الغرب يجد فيها جمالاً رائعاً ، وتفسيراً لكثير من مظاهر الابهام الذي يغمر النفس الانسانية ، روعة وأي روعة ، وموطناً عذباً سائغاً يجد المرء فيه انطلاقاً نفسانياً ليس يحسه ولا يشعر به في غيرها من الوان الحياة المعاصرة

ولقد حاول الغرب وما يزال يحاول ان يغزو الشرق في جميع ميادين الحياة ، وما نعلم انه وفق حتى الآن ، بل ونحن على ملء اليقين من انه لم يوفق ابداً ، لانه ليس يكفي لكي يغزو الغرب الشرق في كل ميادينه ان تكون اساليب الغرب في الحياة وكسب العيش قد انتقلت الى الشرق فاصبح يستعمل الالات الزراعية الغربية في زراعته والصناعية في صناعته ، وانه اصبح يلبس لباس اهل الغرب ، ويأكل على طريقتهم ، وينتقل بوسائل انتقالهم ، بل ليس يكفي لهذا الاقتناع ان ينقل الشرق اساليب حكم الغرب ، فهذه مظاهر خارجية ان بهرت النظر فان اثرها الداخلي قليل ضئيل وانما التغريب يكون في تأثير الغرب على النفسية الشرقية والروحية الشرقية ، وهذه كما نعلم حتى الان قليلة الاثر ، خفيفة التأثير وقد لا نخطىء القول اذا رحنا نقول ان تأثير الشرق على الغرب في صوفيته وروحيته اكثر من تأثير الغرب بكثير

يقول الاستاذ جيب المستشرق الانكليزي :

«اذا اردنا ان نعرف القدر الصحيح الذي أثرت به الثقافة الغربية في الاسلام فانه يجب علينا ان ننظر بصراحة وان نوجه نظرنا في المحل الاول للافكار والحركات القائمة على اساس من التمثل الخالق للفكر الغربي بعد تحضير داخلي في النفس عميق ، اما ما سوى ذلك فسطحي كله ، ومهما يكن العمل دقيقاً وشاقاً فانا يجب ان نبذل جهدنا لنميز من بين ما استورد العالم الاسلامي من مواد الغرب الفاسد اكثرها ، والتي تزحم الان اسواق الاسلام وميادينه تلك التي تقيم الاسس الاولى لبناء ثقافة جديدة»

وهنا يمس الاستاذ جيب قاع المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم وعن اقامة نظمها في العالم الاسلامي على اسس غربية . وهو في الوقت نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها في اقامة اساس الثقافة الجديدة ، وهو يقول ان التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت اكثرها ترمي الى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ، فليس شيء من شؤون هذه الحياة يصح ان نسبغ عليه الطابع الديني الا ما كان دينياً بطبعه . وقد استطاعت الثقافة في نظر الاستاذ جيب ان تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ :

« اذا كان الاسلام كدين لم يفقد الا قليلاً من قوته فهو كنظم للحياة الاجتماعية قد نزل عن عرشه وقامت الى جانبه او من فوقه

قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الاحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وهي مع ذلك تقوم في موقف الاحترام منه ولنصف الواقع في ابسط صوره ، فالذي حدث هو ما يأتي : الى عهد قريب كان المسلم المزارع او ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الادب الديني وليس له أعباء ولا حياة عامة الا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية الا قليلاً او لا شيء وذلك من خلال المنظار الديني فالدين كان اذن كل شيء عنده . اما اليوم فقد اتصلت اغراضه بالامم التي أصابت حظاً من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين ، فهو يقرأ او تقرأ له فصول شتى في شؤون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا يناقش فيها وفاقاً للنظم الدينية على الاطلاق ويكون الحكم فيها لنظريات ومبادىء لا شأن للدين بها ، وهو يجد في كثير من متاعبه ومنازعاته ان لا فائدة له من التقدم الى المحاكم الشرعية وانه انما يقيده قانون مدني قد لا يعلم من اين يستمد سلطان نفوذه ، ولكنه يعلم انه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة ، ولم تبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد في صلاته بغيره من مواطنيه بل اخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره ، وبذلك خفت سلطة الاسلام في الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً الى ميدان من النشاط اشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعي

وحس ، وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذي تم والذين حاولوا اتمامه عن ادراك وشعور كانوا اقل من اولئك نسبة»

وهنا يجب ان نعترف بان الاستاذ قد لمس الحقيقة كما لمسها من قبل لكننا نعتقد من ناحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر في التطور الذي اشار الاستاذ اليه ، ان هذا الاتجاه الحديث الذي تأصل في نواح كثيرة من نواحي الحياة الاسلامية انما دفع اليه الثورة على الجمود وعلى التقليد الاعمى وعلى الخرفات والاوهام القديمة ، وعلى هذا الازدراء بالعقل الانساني وبحربته مما امتازت به المدرسة العتيقة التي كانت سبباً في تدهور الاسلام وانهيار الشعوب الاسلامية ، وليس ادل على ذلك مما لاحظه الاستاذ جيب وزملاؤه مؤلفو « وجهة الاسلام » من ان كثيرين من الشبان الذين حملوا الوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بانهم في حاجة الى اكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وانهم لذلك يجب ان يلجأوا الى تراث السلف من المسلمين لالتماس ماينقص هذه الحضارة الجديدة وزادهم شعوراً بهذا النقص ان رأوا الفكرة القومية تقوم في الغرب على نضال اقتصادي عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الاخاء الانساني أو من المودة والرحمة ، نضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو

الذي كان مثار الحروب ومثار أسباب الشقاء والتعس في هذا العصر من عصور الانسانية . وقد زادت الصناعة التي كانت ومـا تزال مظهر هذه الحضارة آلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم الاسلامي في تراث الماضي ما يشفي غلة روحه ممـا عجزت الحضارة الغربية عن ان تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضـارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادي الفظيع الذي يهوي بالانسان الى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟!

ان هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من اباطيـل عصور الانحلال الذي أصاب العالم الاسلامي قروناً متواصلة وليكن من عمل رجال العالم الاسلامي ان يزيحوا اكداس هذه الطبقات وان يعيدوا الى الوجود في احدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذي غزا العالم وغذاه بادوات الحضارة اجيالاً وقروناً طويلة

عند هذه النقطة يقف العالم الاسلامي اليوم ، ومظهرها الصريح الواضح ان اولئك الذين كانوا دعاة الحضارة الغربية وحملة اعلامها والذين بلغوا من ادراك حقيقتها ان وقفوا على هذا العجز والقصور فيها هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . اولئك يشعرون شعور الواثق بانهم سيجدون ولا ريب في هذا التراث ما يبعث الى عالم اليوم الرازح تحت ظلمات المادة ضياء روحياً هم وحدهم القديرون

على بعثه من جديد لان اتصاله بروحهم دون روح العرب هو الذي يذكي ضياءه . ويوم يوفقون الى هذا فسيتاح للعالم الاسلامي بموقعه الجغرافي بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الاسيوية ان يمد يداً الى ناحية ويداً الى الاخرى ليرتفع بهؤلاء واولئك الى الى ميادين الحضارة الصحيحة ، الحضارة التي تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح ، الحضارة التي تقوم على أساس الاخاء وتقول ان المرء لا يكمل ايمانه حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه . الحضارة التي تبث في انحاء الحياة بسمات السعادة الصحيحة وتضيئه بنور الحق الذي يقف محجوباً بحجب المكان والزمن ، الحضارة التي لاتعرف اسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً ، والتي تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والايثار واطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً ايا كانت اجناسهم وعقائدهم والمغفرة للمذنب والمحبة المتينة في ارجاء الكون كله ، والتي تندس اليوم اليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسداً وتقسمها كما تقسمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . يوم ينهض الاسلام بهذا العبء العظيم يستمده من ماضيه ، بعد ان يكشف عن نوره ليضيء العالم كله ، يومئذ يبدأ العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من اعماق قلوب ملئت رحمة وعطفاً ومحبة . أما الى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحكمة ، وسواء أكان النظام الذي يجعل للمادة الحكم

بلشفياً ام كان نظام رأس المال، فالشقاء حتم على الانسانية لا محالة ذلك بان حكم المادة هو حكم الوحشية التي تستطيب الدم والدمار والموت . اما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما في الكون من مودة ورحمة فحكم الاخاء الذي لا سبيل غيره الى السعادة والسكينة والنعمة والسلام

***

لقد تناولنا ترجمة كلمة الاستاذ جيب عن مقال لاحدى الصحف ثم ذهبنا نعلق على الرأيين لما رأيناه فيهما من تأييد للرأي الذي ننادي به ، وللفكرة التي نعمل على اقرارها فذيوعها فانتشارها ، ونحن واثقون ان المحمديات ، وهي السلسلة التي ستعمل على بث الروحية الاسلامية الشرقية ستصادف الاقبال الذي تستحقه عند جمهرة القراء المتأدبين ، خصوصاً وانها تؤيد بصراحة ضرورة الرجوع الى هذه الروحية الاسلامية المليئة بالاخاء والمودة والاحسان

عمر ابو النصر

جمادى الاولى ١٣٥٣
بيروت آب ١٩٣٤

مقدمة المؤلف

لماذا يجب علينا ان نعرف الاسلام ؟

ما يبرح بعضهم يكرر هذا ويردده ما سنحت له الفرصة ، وكان الى ذلك سبيل ، يقول : « ان فرنسا دولة اسلامية كبرى .. لان الامم والجماعات الاسلامية التي تقوم بامر الاستعمار عليهم في الجزائر وافريقيا الافرنسية ، وبامر الحماية فيهم في مراكش وتونس وبامر الانتداب عليهم في سوريا ولبنان يعدون اربعين مليوناً من الانفس »

ومع ذلك فان ما يعرفه الافرنسيون عن محمد (عليه السلام) ودينه وتاريخه ، ثم ما يتصل بذلك من انتشار الاسلام ووثبته ، وتبسطه في اقطار العالم قليل الاثر ضئيل الخبر

اما الافرنسي المتوسط المعارف فان الاسلام في نظره لا يزيد عن انه دين من الاديان العديدة التي صادفت حظاً من النجاح

في هذه الارض ، وانه يختلف عنه في عقائده وتقاليده كل الاختلاف

واذا ما كان ملماً ببعض التاريخ فان معارفه عن الاسلام قد تضطرب بانه دين راح يبشر به نبي عربي منذ الف سنة ونيف ، وانه راح يمتد بعد ذلك حتى وصل الى اوربا ثم ارتد عنها في معركة حاسمة وقعت في البلاد الافرنسية الحاضرة ، وان الذين يتمسكون به اليوم جماعة لا يتصلون بالمدنية الحاضرة باسباب وصلات قوية ، وان شأنه في السياسة العالمية الحاضرة ضعيف الاثر ، قليل التأثير .

وهذا يعني ان الافرنسيين المتوسطي المعارف لا يعرفون شيئاً عن الاسلام ، ولعل سبب ذلك كراهية الشعب الافرنسي لبحث المسائل الدينية والاهتمام بها ، لا فرق في ذلك بين عالمهم ومتوسطهم ولا بين المتدين منهم والملحد فيهم ، واما المتدينون حقاً من الافرنسيين فينظرون الى الاسلام نظرة اخرى ، ويعتقدون انه لون من الخطأ في الاعتقادات والمذاهب الدينية ، واما الكهنة فلا يرون في البلاد الاسلامية التي ينزلونها غير مواطن للفتح جديدة ، وموقفهم هذا قد عبر عنه المبشر زويمر الذي قال : « ان البلاد الاسيوية والافريقية الملطخة بالدماء لا تزال بحاجة الى شهداء جدد »

والخلاصة ان ما يعتقده الناس المتوسطو المعارف في الاسلام يضطرب في أحد أمرين اما جهل لعقائده وتاريخه ، أو تعصب يخفي مفاخره ومحاسنه ، ولعل سبب ذلك هذه الحروب الصليبية التي لا تزال ملء السمع ملء البصر ، والتي أثارت الحرب بين الاسلام والمسيحية مدى سنوات عديدة

ولكن الواقع هو أن نشوء الاسلام وتبسطه يعد من الامور الخطيرة في تاريخ الانسانية ، ودرس هذا النشوء ، وبحث هذا التبسط ضروري لمعرفة التاريخ الانساني وتقدم الحضارة الحاضرة .

ولقد ولد محمد نبي العرب في قلب البلاد العربية سنة ٦٢٢ بعد المسيح ، وتمكن الاسلام في اواخر القرن السابع الذي ولد محمد في اوائله ان يقتحم سورية ، وفارس ، ومصر ، والغرب ، وان يمتد إلى كل فريقيا الشمالية ، وان يحتل كل الجزر الواقعة في البحر المتوسط ، وان يتصل بالهند والصين ، فلما اذنت شمس القرن الثامن بشروق اقتحم الاسلام اسبانيا ، وأخذ شارلمان وهارون الرشيد يتبادلان السفراء والهدايا ، واما البلاد المفتوحة فقد راحت تشهد عهداً من الطمأنينة واستبحار العمران وتقدم الحضارة لم تشهده في ماضيات ايامها وغابرات اعوامها

واما اليوم فان للاسلام شأنه في الحضارة الحاضرة ،

وأثره في السياسة المعاصرة ، وهو اثر بعيد المدى ، عظيم المصاير.

اما مواطن الاسلام اليوم فعظيمة كبيرة ،ويبلغ عددالسكان المسلمين وفاقاً للاحصاءات الاخيرة من مائتين واربعين الى مائتين وخمسين مليوناً ، منهم مئة وثمانون في آسيا ، وخمسون في افريقيا والباقون موزعون بين اوربا واميركا

وهؤلاء المائتان وخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين اوفي حكم المتصلين بعضهم ببعض. فهم يتتابعون في سلسلة متصلة من غرب افريقيا حيث يتاخمون الاطلانطيكي الى السودان ومصر ويمتدون محاذين البحر الابيض المتوسط الى آسيا وجنوب اوربا مما حول البحر الاسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الانصال شمالاً في قلب سيبيريا وشرقاً في منغوليا كما انها تتخطى الدجلة والفرات في العراق الى العجم والى افغانستان والى الهند حيث تنقطع السلسلة لتتصل بعد ذلك في جزر الملايا وارخبيل الهند الشرقية حتى تنتهي الى الفيلبين ، وهي تنزل جنوباً من السودان الى شاطىء افريقيا الشرقي حتى مدغسقر ، يضاف الى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب اسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفي جنوب افريقيا وفي بولونيا وفي انحاء مختلفة من اوربا وأميركا . يقول احد المستشرقين: « اذا انت نظرت الى العالم الاسلامي

على الخريطة رأيته أشبه شيء بهلالين عظيمين تنبعث قرونهما من مركز مشترك في آسيا الغربية . فالهلال الشمالي يتكون من شريط يزيد عرضه على الف ميل ويكاد يحيط باوربا من اقصاها الى اقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان

وانه لخطأ بليغ ان يصدق المرء ما يروج له البعض من ان السيف كان المبشر الاول في تقدم الاسلام وتبسطه ، ذلك ان السبب الاول في انتشار الاسلام يعود الى هذه الاخوة الدينية الفريدة ، والى هذه الحياة الجديدة الاجتماعية التي دعا اليها ومكن لها ، والى هذا الايمان القوي الذي راح يدفع المسلم غازياً فاتحاً من أقصى الارض الى أقصاها ، ثم الى هذه الحياة الشريفة الطاهرة التي راح يحياها محمد وخلفاؤه من بعده والتي بلغت من الطهارة والعفة والتضحية حداً جعل من الاسلام قوة عظيمة لا تغلب

وما زال الاسلام يتقدم غازياً فاتحاً في كل موطن يحتاج الى الفتح والغزو ، وكلما تقدم تنهار امامه الديانات القومية ، وهو في تقدمه هذا العجيب لا يرتد عن ارض راح يفتحها ويغزوها بعقائده وتقاليده وبساطة تعاليمه ، وهذا أمر يعرفه المبشرون الذين حاولوا غير مرة ان يحملوا بعض القبائل التي تقبلت الاسلام على قبول

المسيحية ، فكانوا دائماً يرتدون فشلين منكسرين ، ومما يجب ان يذكر ان كثيراً من القبائل التي راحت تقبل المسيحية اولاً ، تتركها وتتقبل الاسلام ديناً حين تتصل بالمسلمين ، وليس يذكر التاريخ المعاصر ابداً ان قبيلة مسلمة ابدلت دينها واعتنقت ديناً غيره

واذا كان هذا التقدم المستمر من شأنه ان يخلق بعض المشاكل السياسية الخطيرة في المستقبل ، واذا كان هذا مما يؤسف له من هذه الناحية ، فان مما يجب الاعتراف به هو ان الاسلام يحمل الى هذه القبائل الافريقية التي تعتنقه ، ديناً وتقدماً عظيماً وحياة اجتماعية اخلاقية رفيعة

وليس يصح ان ينظر الى دين محمد كدين مليء بالخرافات والاكاذيب وغير ذلك ، فهذا مخالف للحقيقة بعيد عن الواقع فان التعاليم الاسلامية شريفة سامية ، والاخلاق رفيعة عالية ، وفي الاسلام من العقائد والآراء ما يستحق احترام الفلاسفة وعلماء الاجتماع .

وليس هنا مجال المفاضلة بين الاسلام والمسيحية ، وكل غرضنا من هذا الكتاب ان نتناول بعض الظواهر الاسلامية بالتعليق والبحث ، خصوصاً وان محمداً نفسه قد راح يصرح بان الاسلام متمم للمسيحية ، وهذا ما يعتقده المسلمون جميعاً ، وقد

كتب السيد امير علي وهو من رجالات الهند المسلمين كتاباً في هذا المعنى جاء فيه :

«ان الحقيقة ابدية ، ورسالة محمد ليست جديدة ، فقد اعلنت قبله ، ولكنها لم تحمل بذورها ، فجاء هو بدوره يؤيد الحقيقة الابدية ويعمل على الترويج لها ، واذاعتها في كل اقطار المعمور»



- ١ -

الجزيرة العربية

لا بد لمن يدرس تاريخ الاسلام ان يلم بتاريخ الجزيرة التي نشأ فيها ، ومواطن الامة التي ترعرع بين ظهرانيها ، ولا بد له من دراسة البيئة والمحيط في شعر الشعراء ونثر الادباء وما كان للجبال والوديان والصحراء وهذا الحر الشديد في تكوين هذه الامة وفي تغذية حضارتها وثقافتها ليتبين له الرأي الموفق في بحوث التاريخ الاسلامي قديمه وحديثه جليله وحقيره شريفه وبغيضه

نحن الان في جزيرة العرب ،ونحن نضرب الارض في الصحراء حيث السماء هادئة وحيث الحر شديد وحيث الشمس على اشدها لمعاناً وشدة وناراً ، وليس علينا ان ندرس جغرافية الجزيرة ، فانه ليس في هذا كبير امر وبميسور القاريء ان يصدر عن فصلنا هذا الى غيره من البحوث المخصصة لجغرافية الجزيرة العربية يتعرف فيها على الوانها ومنازعها وما هي عليه من بعد سحيق عن العمران ، وارض مجدبة لا تعرف الخصب الا غراراً ، ولا يتنزل عليها المطر الا نادراً ، بحيث صعب عليها ان تربط مصايرها بمصاير الامم

المتحضرة واصبح حتماً عليها ان تظل مكانها بعيدة عن العمران غريبة عن الحضارة

هذه هي الجزيرة نزلها الساميون من العرب اول عهدها في التاريخ حتى اذا كثر عددهم نفروا عنها الى سواها من المدن القريبة المتحضرة كاشور وبابل وما قام بين النهرين من امم وجماعات يجوسون ارضها ، وينتهكون معاقلها ، وينزلون فيها نزول الفاتح في ارضه ، ويمشون فيها مشية المليك في بستانه ، ويطبعون هذه الامم الجديدة بطابعهم السامي ويظل هذا حالهم آجالاً وعصوراً حتى عصر الجاهلية قبل الاسلام واذا العرب فيه مثلهم قبله واذاهم لا يزالون تغلب عليهم البداوة ويعيش اكثرهم عيشة القبائل الرحل ، فلا يتصلون بالارض اتصال المزارع الفلاح ، ولا يمكثون في البلد مكوث المقيم ، بل نراهم يتربصون مواسم الغيث فيمشون اليها رجالاً ونساء وشباباً وغلماناً وابلاً ، وهذه حياة على ما فيها من جهد ومشقة قل ان تسمح بقيام الجماعات المتحضرة وقل ان تمكن اصحابها من تأسيس حضارة وثقافة مستفيضة متينة

ويعصم ربك الجزيرة فلا يكاد يهبطها غاصب او فاتح الا غراراً، ثم ما شأن الفاتح في ارض ليس فيها من الخير ما يمكن لسكانها في الحياة وما شأنه في بلاد كلها قبائل وعشائر قلوبهم اسيافهم ومنازلهم رواحلهم ، فان هو حاول ان يجوس ارضهم نفروا

عنه ، واستقروا في مكان من الجزيرة سحيق

ثم يكرون عليه فما يبرحون به كراً وفراً واحراجاً حتى لا يطيق معهم صبراً فينصرف عنهم، وقد اضناه التعب ، وبرح به طول الشقة وعضه الجوع ، ولوحته الشمس ، فلا نعجب بعد ذلك ان لا يقتحم الجزيرة الروم والفرس ابان سلطانهم ، ويوم كانوا ملء السمع ملء البصر ، وقد دوخوا في عهدهم بلاداً ابعد منها ، وجماعات اشد من العرب قوة وعصبية ، وامضى سلاحاً

بلاد قاحلة ما يتجه نظر احد للاستيلاء عليها وقبائل وعشائر بدوية تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات والماشية وما تنتضح به الماشية من البان وغيرها . وكانت بلاد العرب بموقعها الجغرافي البديع بين آسيا وافريقيا طريق التجارة بين الامم المحيطة بها من اقصى الصين الى اقصى البحر المتوسط . ثم لما كانت الثمرات والبان الماشية لا تكاد تسد من جوع ابنائها ، فقد كان من واجب البدوي ان يضرب الارض طلباً للرزق وان يطلبه من المدن العربية النازلة في الجزيرة والتي كانت وفيرة الحضارة باسقة العمران فكان ينزلها اما حامياً لقوافلها من غزو امثاله لها او صاحب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها الى موردها او تاجراً ينقل للشام وغير الشام ماشية الجزيره على ان يعتاض عنها بما هو في اشد الحاجة اليه من مأكل ومشرب وملبس

وكذلك كانوا يعيشون على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان اما اصوافها فكانوا يلبسونها ويتخذونهـا مساكناً، وكانوا يعتمدون في تغذية هذه الماشية على الطبيعة يخرجون بها في مواسم المطر الى منابت الكلاء لترعى ، حتى اذا انتهى الموسم كروا راجعين الى مواطنهم ينتظرون الموسم التالي ريثما يحول الحول ويتنزل الغيث وقد لا يكفيهم هذا الغذاء فيعمدون الى الضب وغير الضب، من حيوان البادية يزدردون لحمه وقد كان شهياً كما يقولون

ثم انهم اذا احتاجوا الى اكثر مما تنتجه ماشيتهم ورأوا ان لا مندوحة لهم عن طلب الغذاء او يهلكون جوعاً عمدوا الى ماشيتهم — كما قدمنا — يستبدلونها بالتمر واللباس وغيرهما ، هذا الى مـا يكسبونه في الغزو والسلب من ماشية ونساء ومتاع وهذا مركب صعب، لان القبيلة المسلوبة تعود تتربص الفرص للاخذ بثارها ،فاذا كان لها ما تريد عمدت الى الخصم فاستردت ماشيتها منه واجتاحت ماشيته ومثل هذه الحال كانت اكثر ما تكون وقوعاً في الجاهلية وقبل الاسلام ، ومن اجل ذلك ولكي يكون بميسور القبيلة ان تحافظ على نفسها وان تسلم من غارات اعدائها كانت تضطر الى الاحتماء بقبيلة قوية عانية ترد عنها عاديات خصومها ، ولكن هذا الحلف لم يكن يدوم طويلاً فسرعان ما كان ينتقض اجتماعهم وتنفصم وحدتهم فينقلب المتحالفون اعداء متحاربين

هذه الحياة في الجزيرة لم يكن بمقدورها ان تنشيء حضارة ثابتة الاركان باقية الاثر لان الحضارة لا تقوم الا على الماء وليس من ماء في الجزيرة، وذلك ان الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع في الحضر وهي لا تتفق والحالة هذه وحياة البادية في كيانها، ثم ان الحضارة فيض جديد متواصل من عمل الانسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية والادبية، وهذا الفيض المتتابع هو الذي مكن الانسانية في ماضيات ايامها وحاضرات اعوامها في الارض، وهو الذي سينقلها في حدود النظام والتقدم الى ابعد مدى ترتجيه نحو الكمال والخلود

ولقد قرأت مؤخراً مقالين لكاتبين شهيرين انكرا فيهما ان يكون للعرب تجارة وذهب الكاتبان الى ابعد من ذلك ، ذهبا يقولان انه لم تقم تجارة في الجزيرة في عصورها الخوالي والواقع انه كانت تقوم هناك تجارة حسنة في الجزيرة العربية اشار اليها غير مؤرخ واحد من اعلام المؤرخين الاوربيين

جاء في التاريخ العام الذي تصدره شركة دائرة المعارف البريطانية ويقع في ٢٧ مجلداً (المجلد الثالث الصفحة ١٠٨) ما يأتي :

« وكان للقريشيين في مكة مورد ثروة لا يستهان به بما يرسلونه صحبة القوافل الى شواطىء البحر الاحمر وما يصدرونه عنها،

وكانت (جدة) مركزاً تجارياً خطيراً، ومكة التي كانت تبعد قليلاً عنها مركزاً عاماً للتجارة العربية، وقد عظم خطر هذين المركزين (مكة وجدة) بما كان يظهره سكانهما من براعة وذكاء في تصريف الاعمال التجارية

ثم انه ليس هناك ريب في خبر القوافل التي كانت تبعث بها مكة الى دمشق والعراق

يقول موير في كتابه «تاريخ محمد» وفي مقدمة تاريخه الضخم «ومع ان جزيرة العرب كانت منذ قرون عديدة بعيدة عن الانظار فاننا نعرف ان تجارة عظيمة كانت زاهرة في كل وقت في هذه البلاد، وهي التي جعلت العرب حملة التجارة العالمية بين الشرق والغرب» وليقرأ القارىء هذه الصفحات في مظانها فيعلم عن خبر هذه التجارة الشيء الكثير ...

وجاء في كتاب التاريخ العام الذي وضعه الكاتب الانكليزي المعروف ولس في الصفحة ٤١٠ — ٤١١ : كان العرب يأخذون الجزية لحماية القوافل التي تمر بارضهم . ولقد قامت بعض المدن العربية على الطرق التجارية مثل مكة والمدينة، ولم تكن مكة مركزاً تجارياً فحسب وانما كانت ايضاً مقراً للحجاج والعبادة .

على ان هذه الحركة التجارية التي استقامت في مكة وغير مكة

لم تكن كافية لانشاء حضارة ثابتة كما قدمنا ، ذلك ان طبيعة الارض في الجزيرة نفسها لم تكن تساعد على قيام الحضارة ولعل اعجب ما في هذه الظاهرة ان لا يمتد تاريخ العرب في الجاهلية الى اكثر من مائتي سنة بينا تاريخ غيرهم من الامم يمتد آلاف السنين ثم ان تاريخهم في هذه المائتي سنة لا يزيد، على انهم كانوا اهل بأس وقوة ونجدة وحياة معنوية فياضة ، واما الحضارة ومظاهرها من علوم وفنون، واما هذا الفيض الذي اشرنا اليه والذي يجب ان يربو على حاجات الانسانية فلا يحدثنا تاريخ العرب قبل الاسلام عن شيء منه ابداً وسبب ذلك كله هذه الحياة التي كانت لا تقيم الركن المادي من اركان الحضارة ، وما نعلم عن حضارة عرجاء كان بميسورها ان تحيا وان تعيش

***

ولعل امتع ما نحدث به القارىء هذا العراك الذي كان بين العربي وبين الطبيعة وبين الحياة ، طبيعة قاسية ، قليلة الماء ، شديدة الحر كثيرة الرمال بعيدة الغور ، وحياة لا ترحم الضعيف ولا تستكين للفقير وابن السبيل ، ثم انها ظالمة قاهرة لا تجود على ابنائها بشيء ثم انها تطلب منهم كل شيء ، ثم هي تنكر ابناءها اذا قعدت بهم الهمم وتخلفوا عن غيرهم من العاملين ، ما تعرف الرحمة الى قلبها سبيلاً ، فاما عمل وسعي ، والا فموت وهلاك ، وكذلك

كان شأن العربي بينا غيره يمشي بين الانهار والجنان وقد لا يمد يده الى مطعم وشراب بل يتنزل عليه الطعام والشراب عفواً وهو سائر في سبيله ، واين للعربي هذا؟؟ كان حتماً على العربي البدوي ان يركب الصحراء من اقصاها الى اقصاها ليتبلغ الاقل من المشرب والاقل من الغذاء ثم ان حياته كانت نهباً مقسماً للقوي ايان اراد وهو اذا لم يكن بميسوره ان يذود عن نفسه اضاعها في العراك الاول لذلك تراه ، وقد عودته هذه الحياة القاسية ان يكون غنياً في خياله وحياته المعنوية ، وانت فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا تجد الا حديث الشاعر عن نفسه ، حربه وغزواته و كرمه وامجاده ونسبه ، هذا كل ما يتغنى به في شعره ، وهذا كل ما كانت تنتضح به نفسه من ثقافة وحياة فاما غير هذا من الوان الفلسفة ونظم الحياة فقد تجدها عند الرومان وغير الرومان من الامم الغابرة ، واما عند العرب وجاهليتهم فانك لن تجدها الا غراراً ، ولن تجدها الا عند افراد ارتبطت مصايرهم بمصاير بعض الامم المتحضرة فتعرفوا عندها على بعض الوان حياتها وما فيها من جمال وجدة وعمق

ثم ان هذه الجماعات البدوية كانت تؤلف في عهد الجاهلية وبعد الجاهلية قبائل تنازع بعضها الرئاسة والزعامة والحياة ، وقد انقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات اختلقت لنفسها انساباً وسواء صحت هذه الانساب ام لم تصح ، فان مما لا شك فيه ان

العرب كانوا يتفاخرون بهذه الانساب ، وانهم كانوا يتناجزون لاجلها ، حتى اصبحوا ولكل قبيلة منهم عصبية خاصة لها ولا بد من تفهم هذه الظاهرة ليكون بطوقنا تفهم تاريخ العرب وما في شعرهم من فخر وادب

***

والثابت اليوم انه لما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول ثلاثة : مضر ، وربيعة ، واليمن ، وقد اخذ شعراء هذه الجماعات وكل يفخر بنسبه وامجاد قبيلته ، تستغل هذه الظاهرة السياسية والحزبية فنراها قوية الاثر بليغة الشأن في عهد امية والعباسيين والاندلسيين

ولقد كان افراد القبيلة يتضامنون اشد ما كان التضامن ، ينصرون اخاهم ظالمًا او مظلومًا ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم ، والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازلهم وقاتلهم من الناس ، واما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واعانة البائس الفقير وان يعطي اكثر مما يأخذ ، وان يغشى الوغى ويعف عند المغنم

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيراً ويشربوا كثيراً وبلادهم مجدبة وقليلة الانتاج فكان حقًا عليهم ان يتصلوا باهل الشام والعراق واليمن وهم اهل حضارة وزراعة ورخاء يستعينون بهم على جدب

ارضهم وقسوة اقليمهم

اما المرأة البدويه فكانت تشارك الرجل في كل شؤون الحياة تحتطب ، وتجلب الماء وتحلب الماشية ، وتنسج المسكن ، والملبس ، ولما كانت ضعيفة وكانت اذا سبتها قبيلة مخاصمة انزلت العار بقبيلتها فقد سقط مقامها وانحطت منزلتها وكانت بعض القبائل تكره النساء فاذا بشروا احدهم بالانثى ،ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام عزلة وجهاداً وشقاء وفاقة ومحافظة على النسب ودفاعاً عن الجار ، وانت لن تجد في شعر الجاهلية معنى اسمى من هذه الحماية وبذل النفس والنفيس في سبيلها واستعداء من يعتدي عليها ، كما انك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل جاوز عندهم ما تدفع اليه فطرة استبقاء النوع وتحسينه،الى ان صار فناً يفكر معه الاعرابي في محبوبته على انها امل يتخيله، وصورة يصل في وصفها الى ما يصل اليه سواه وذلك ان الشاعر العربي القديم كان يقاسي من ضروريات الحياة مايقاسي ثم لا يجد من صور الترف والنعمة سواء المرأة ، وكان لذلك يسبغ عليها كل ما في عقلة وقلبه وكل ما في بصره وبصيرته من

***

ولقد استقامت للعرب حضارة سالفة، فشا امرها في اليمن وغير اليمن، وحدثنا عنها هيرودتس المؤرخ اليوناني بشي كثير من الدهشة والاعجاب، وامكن هؤلاء القوم الذين كانوا تجاراً ينقلون متاجر المجاورين وغير المجاورين من الامم الى اقطار العالم حتى الهند، والذين كانوا حماة للتجارة من غزو المعتدين، ان يلموا بطرف من حضارات الجماعات التي كانت تقوم حولهم في ما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سالفة بعيدة المدى في العمران رائعة المظاهر في سالفات الازمان

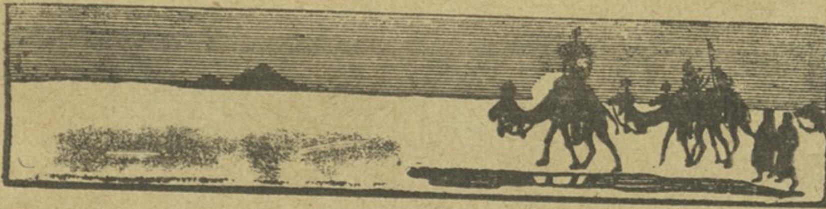
ومما لا جدال فيه ان الارض في الجزيرة العربية اليوم غيرها في ماضيات الايام، وانها في الماضي كانت كثيرة الخصب، عظيمة المياه، فتناولتها النوازل الجغرافية بكثير من الجفاف حتى اصبحت جرداء قاحلة، واستحال بذلك على الحضارات السالفة ان تمكن لنفسها في الحياة، والعمران التي يقوم في الارض الخصبة وعلى الامواه وضفاف الانهر والبحار، فلا يعجبن القاريء بعد ذلك اذا تبدلت الارض غير الارض، واذا تدنت الحضارة وانهار العمران، فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة

ويحدثنا التاريخ في ما يحدثنا عنه عن خصب الارض العربية خصوصاً في اليمن وما يجاورها من امصار ومواطن . ويذكر في ما يذكره كيف ان بلقيس عاهلة اليمن والتي مشت الى سليمان الحكيم زائرة طائعة ، كانت من الملكات اللواتي استقامت لهن الحضارة في العصور الخوالي ، وانها حفرت في الارض سداً حفظ لها من الماء ما شاء الله ان يحفظ ، حتى اذا أَلم الجفاف في ارضها سنة وبعض السنة صرفت من مائه ما يسقي الزرع ، ويطعم الارض فيعود الخير الى اليمن سيرته الاولى ، وعهده السابق وقد اشار التاريخ الى انهيار هذا السد ، وبانهياره سقطت الحضارة القائمة واندثر العمران القائم ، وكأن القوم ما كانوا

اما اثر الحضارة في الادب العربي من نظيم ونثير قبل الاسلام فلا سبيل الى بحثه بالتفصيل في هذا الفصل ، وان كان هذا امراً قد اجمع المؤرخون على الاعتراف به والاشارة اليه ، خصوصاً ما يتصل بالشعر منه ، والشعر يسبق النثر في كل امة من الامم خصوصاً الامم التي تقوم وسائل الحياة فيها على البداوة وما يتصل بهذه البداوة من شظف العيش وقلة الخير

والثابت اليوم ان العرب قبل الاسلام كانوا ينعمون بحياة شعرية ادبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما نزال حتى اليوم نردد شعرهم ونحفظ قصيدهم ونتغنى بمدائحهم

ووصفهم ، والشعر العربي في هذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الوان الحياة تصويراً اقل ما يقال فيه انه ما يزال حتى اليوم اساساً لدراسة التاريخ العربي في الجاهلية (١)



(١) هذ الفصل للمعرب

- ٢ -

بلد النبي وموطن الوحي

مكة بلد يقع في طريق القوافل العربية وغير العربية التي كانت تضطرب في قلب الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، ومن العسير معرفة تاريخ اقامتها ، واغلب الظن انه يرجع الى الوف تمضت من السنين .

ولا بد من كلمة في مكة مواطن النبي ونشأتها وتاريخها ، ونظن اننا نحسن صنعاً اذا اقتبسنا فصلاً للاستاذ هيكل تناول فيه حضرته هذا البحث الطريف ، فنعمد نحن بدورنا الى استخلاص بعض فرائده والاستمتاع بما فيه من رأي جميل ، ومذهب جديد فنقول :

كانت مكة قبل ان تنتظم فيها العمارة ، ويستبحر فيها الاسلام موئلاً لراحة رجال القوافل بسبب ما كان فيها من العيون ، وكان رجال القوافل هؤلاء يجعلون منها مضاربا لخيامهم سواء منهم القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين او القادمون من فلسطين متجهين الى اليمن . والراجح ان اسماعيل ابن ابراهيم

اول من اتخذها مقاماً وسكناً بعد ان كانت مجرد محلة للقوافل وسوق للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها

واذا كان اسماعيل اول من اتخذ مكة مقاماً وسكناً فان تاريخها فيما قبل ذلك غامض كل الغموض ، وان يكن ممكناً القول بانها اتخذت مقاماً للعبادة قبل ان يجيء اليها ويقيم بها . وقصة مجيئه اليها تحملنا على ان نلخص قصة ابيه ابراهيم عليهما السلام : فقد ولد ابراهيم بالعراق لاب نجار كان يصنع الاصنام ويبيعها من قومه يعبدونها ، ولما رآهم يخلعون على هذه القطع من الخشب التي مرت بين يديه ويدي ابيه كل تلك القداسة ساوره الشك في امرها وسأل اباه كيف يعبدها وهي من صنع يده . وتحدث ابراهيم بذلك الى الناس فاهتم ابوه لامره مخافة ما يجره من بوار تجارته لكن ابراهيم كان ممن يحترمون عقولهم ويريدون ان يحملوا الناس بالحجة على الاقتناع بآرائهم ، فانتهز غفلة من الناس فذهب الى هذه الآلهة فكسرها الا كبيرها ، فلما جيء به على اعين الناس قيل له : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون » وانما فعل ابراهيم هذا بعد ان فكر في ضلال عبادة الاصنام وفيمن تجب له العبادة . « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال ياقوم اني برىء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين »

ولم ينجح ابراهيم في هداية قومه بل كان جزاؤه منهم ان القوه في النار، وانجاه الله منها ففر الى فلسطين مستصحباً معه زوجه ساره، ومن فلسطين ارتحل الى مصر وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس) ، وكانت سارة جميلة وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات فاظهر ابراهيم ان سارة اخته خشية ان يقتله الملك ليتخذها له زوجاً . واراد الملك اتخاذها زوجاً فرأى في المنام انها ذات بعل فردها الى ابراهيم بعد ان عاتبه واعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر . ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع ابراهيم ولم تلد فقد دفعته ليدخل بهاجر فدخل بها فلم تبطىء ان ولدت له اسماعيل ، ولما شب اسماعيل وترعرع دبت الغيرة في نفس سارة فحملت ثم ولدت اسحاق

ويختلف الرواة هنا في مسألة اقدام ابراهيم على ذبح اسماعيل والفداء وهل كانت قبل ميلاد اسحاق او بعده ، وهل كانت بفلسطين أم الحجاز . وان مؤرخي اليهود ليذهبون الى ان الذبيح انما

كان اسحاق ولم يكن اسماعيل ، وليس هنا مكان تمحيص هذا الخلاف ، وفي رأي غيرهم ان الذبيح هو اسماعيل ، ودليلهم من التوراة نفسها ان الذبيح وصف فيها ، بانه ابن ابراهيم الوحيد ، والى ان ولد اسحاق كان اسماعيل هو الابن الوحيد ، فلما ولدت سارة لم يبق لابراهيم ابن وحيد ، ان كان له اسماعيل واسحاق . والتسليم بهذه الرواية يقتضي ان تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين . وكذلك يكون الامر اذا كان الذبيح اسحاق ، فقد ظل اسحاق مع امه سارة بفلسطين ولم يذهب الى الحجاز . فاما الرواية التي تذهب الى ان الذبح والفداء انما كان فوق منى فتجعل الذبيح اسماعيل . ولم يرد في القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون عليه

وقصة الذبح والفداء ، ان ابراهيم رأى في منامه ان الله يأمره بان يقدم ابنه قرباناً له . فسار وابنه في الصباح « فلما بلغ معه السعي قال يابني اني أرى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما اسلما وتله للجبين ، وناديناه ان ياابراهيم : قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين . ان هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم »

هذه قصة الذبح والفداء . وهي قصة الاسلام لامر الله غاية الاسلام ، والتسليم لقضائه كل التسليم

وشب اسحاق الى جانب اسماعيل وتساوى عطف الاب على الابنين فاغضب ذلك سارة ان رأت هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر امتهاغير لائقة بها . واقسمت لا تساكن هاجر ولا ابنهاحين رأت اسماعيل يضرب أخاه . وأحس ابراهيم بان العيش لن يطيب وهاتان المرأتان في مكان واحد . عند ذلك ذهب بهاجر وبابنها ميمماً الجنوب حتى وصل الى الوادي الذي تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى كما قدمنا مضرب خيام القوافل في الاوقات التي تفصل فيها القوافل من الشام الى اليمن أو من اليمن الى الشام ، ولكنه كان فيما خلا ذلك من اوقات السنة خلاء او يكاد . وترك ابراهيم اسماعيل وامه وترك لهما بعض ما يتبلغان به . واتخذت هاجر عريشاً آوت اليه مع ابنها وعاد ابراهيم أدراجه من حيث اتى . فلما نفد الماء والزاد جعلت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئاً فجعلت تهرول حتي نزلت الوادي تلتمس ماء وهي — فيمايقولون — لا تنفك في هرولتها بين الصفا والمروة حتى اذا اتمت السعي سبعاً عادت الى ولدها وقد ملكها اليأس فالفته قد فحص الارض بقدمه فنبع الماء من الارض فارتوت وروت اسماعيل معها وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع في الرمال

واقام الغلام وامه ترد عليهم العرب اثناء رحلاتهم فينالان من الخير ما يكفيهم اسباب العيش الى ان تمر بهم قوافل اخرى . على

ان زمزم التي تفجر ماؤها قد استهوت بعض القبائـل للمقام على مقربة منها ،وجرهم اولى القبائل التي اقامت والتي يقول بعض الرواة انها كانت هناك قبل ان تجيء هاجر وابنهـا، بينا تذهب روايات اخرى الى انها لم تقم الا بعد ان تفجرت زمزم وجعلت العيش في هذا الوادي الاجرد مستطاعاً . وشب اسماعيل وتزوج فتاة من جرهم واقام واياها مع الجرهميين في هذا المكان الذي شيدبه البيت الحرام وقامت مكة بعد ذلك من حوله ، ويذكرون ان ابراهيم استأذن سارة يوماً في زيارة اسماعيل وامه فاذنت له فذهب فلما سأل عن بيت اسماعيل وعرفه قال لامرأته : اين صاحبك . قالت: ذهب يتصيد ما نعيش به . فسألها ان كان عندها ضيافة من طعام أو شراب،فاجابت:بان ليس عندها شيء ، فانصرف ابراهيم بعدان قال لها : اذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام وقولي له : غير عتبة بيتك . فلما اخبرت اسماعيل بما ذكر ابوه سرحها وتزوج جرهمية احرى بنت مضاض بن عمر . وقد اكرمت هـذه وفادة ابراهيم لما جاء بعد ذلك بزمن ، فلما انصرف قال لها كي تقرئ زوجهـا السلام وتقول له : الآن استقامت عتبة بيتك ، وولد لاسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولداً هم آباء العرب المستعربة ،هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم في جرهم الى العرب العاربة ابناء يعرب بن قحطان ، ومن ناحية ابوتهم لاسماعيل بن ابراهيم الذي

يت من ناحية امومته الى مصر باوثق نسب ، ومن ناحية ابوته الى العراق والى فلسطين والى حيث نزل ابراهيم من ارض الله

***

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الاجماع على جملتها من ذهاب ابراهيم واسماعيل الى مكة وان وقع خلاف على التفاصيل وقد علق الدكتور هيكل على ذلك قائلاً :

والذين يعرضون لتفصيل حوادثها بالتقدير يروونها على ان هاجر ذهبت باسماعيل الى الوادي الذي به مكة اليوم، وكانت به عيون اقامت جرهم عندها، فنزلت هاجر منهم اهلاً وسهلاً لما جاء ابراهيم بها وبابنها ، فلما شب اسماعيل تزوج جرهمية ولدت له اولاده، وكان لهذا التلاقح بين اسماعيل العبري المصري وبين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوة البأس والجمع بين فضائل العرب والعبريين والمصريين ·

***

لكن (السير وليم موير) المؤرخ الانكليزي يرتاب في ذهاب ابراهيم واسماعيل الى الحجاز وينفي القصة من اساسها ويذكر انها من الاسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الاسلام باجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك في ابوة ابراهيم لهم اجمعين ان كان اسحاق اباً لليهود · فاذا كان اخوه اسماعيل ابو العرب فهم ابناء

عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود وتيسر لتجارة اليهود في شبه الجزيرة . ويستند المؤرخ الانكليزي في رأيه هذا الى ان طقوس العبادة في بلاد العرب لا صلة لها بينها وبين دين ابراهيم لانها وثنية مغرقة في الوثنية، وكان ابراهيم حنيفا مسلماً ، ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً لنفي واقعة تاريخية، فوثنية العرب بعد موت ابراهيم واسماعيل بما يزيد عن تسعمائة سنة لاتدل على انهم كانوا كذلك حين جاء ابراهيم الى الحجاز وحين اشترك واسماعيل في بناء الكعبة ، ولو انها كانت وثنية يومئذ لما ايد ذلك رأي سير موير ، فقد كان قوم ابراهيم يعبدون الاصنام وقدحاول هو هدايتهم فلم ينجح ، فاذا دعا العرب الى مثل ما دعا اليه قومه فلم ينجح وبقي العرب على عبادة الاوثان لم يطعن ذلك في ذهاب ابراهيم واسماعيل الى مكة ، بل ان المنطق ليؤيد رواية التاريخ ، فابراهيم الذي خرج من العراق فاراً من اهله الى فلسطين والى مصر ، رجل الف الارتحال ، والف اجتياز الصحاري ، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان من اقدم العصور مطروقاً من القوافل ، فلا محل اذن للريبة في واقعة تاريخية انعقد الاجماع على جملتها

والسير وليم موير والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه يقولون، بامكان انتقال جماعة من ابناء ابراهيم واسماعيل بعد ذلك من فلسطين الى بلاد العرب واتصالهم واياه بصلة النسب ، وما تدري

وهذا الامكان جائز عندهم في شأن ابناء ابراهيم واسماعيل كيف لا يكون جائزاً في شأن الرجلين بالذات ! و كيف لا يكون ثابتاً قطعاً ورواية التاريخ تؤكده ! و كيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الاخرى

ورفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت الحرام . و « ان اول بيت وضع للناس للذي بمكه مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً » ويقول تعالى في سورة البقرة : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال: ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم »

كيف رفع ابراهيم البيت مثابة للناس وامناً ، ليتوجه الناس فيه الى الله مؤمنين به وحده ، ثم اصبح من بعد ذلك موئل الاصنام وعبادتها ؟ و كيف كانت طقوس العبادة تؤدي فيه بعد ابراهيم واسماعيل وعلى اية صورة كانت تؤدي؟ ومتى تغيرت هذه الطقوس

وتغلبت عليها الوثنية؟ هذا ما لا يحدثنا التاريخ المعروف عنه، وكل ما هنالك فروض يحسبها اصحابها تصف ما كان واقعاً فالصابئون من عباد النجوم كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب، وقد كان هؤلاء - فيما يقولون - لا يعبدون النجوم لذاتها وانما كانوا في بداية امرهم، يعبدون الله وحده ويعظمون النجوم على انها مظاهر خلقه وقدرته، ولما كانت كثرة الناس الكبرى اقصر من ان يحيط ذهنها بمعنى الالوهية السامي فقد اتخذوا من النجوم آلهة، ولما كانت بعض الاحجار البركانية يخال الناس انها ساقطة من السماء منحدرة لذلك من بعض النجوم، فقد اتخذت اول امرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيعة وقدست بهذه الصفة، ثم قدست لذاتها ثم كانت عبادة الاحجار حتى كان العربي لا يكفيه ان يعبد الحجر الاسود في الكعبة بل كان يأخذ معه في اسفاره اي حجر من احجار الكعبة يصلي اليه ويستأذنه في الاقامة والسفر ويؤدي اليه كما يؤدي للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة، ومن ثم استقرت الوثنية وقدست التماثيل وقربت لها القرابين

هذه صورة يصورها بعض المؤرخين لتطور الامر في بلاد العرب من بناء ابراهيم البيت لعبادة الله، وتطور امره بعد ذلك ليكون مستقر الاصنام . وقد ذكر هيرودويت ابو التاريخ المكتوب عبادة اللات في بلاد العرب . وذكر ديودو الصقلي

بيت مكة الذي تعظمه العرب ، فدل ذلك على قدم الوثنية في بلاد العرب وعلى ان دين ابراهيم لم يستقر فيها طويلاً

افكانت تحيط بالكعبة منذ انشائها مناصب كالتي تولاها قصى بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي حين اجتمع له ملك مكة على ما سنذكر من بعد ؟ فقد اجتمعت لقصي الحجادة والرفادة والندوة واللواء والقيادة : والحجابة سدانة البيت اي تولى مفاتيحه . والسقاية اسقاء الحجيج الماء العذب الذي كان عزيزاً بمكة واسقائهم كذلك نبيذ التمر . والرفادة اطعام الحاج جميعاً . والندوة رياسة الاجتماع كل ايام العام . واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى عدو . والقيادة امارة الجيش اذا خرجوا الى حرب ، وكانت هذه المناصب كلها معتبرة في مكة وكأنها تحيط بالكعبة متجه انظار العرب جميعاً في عاداتهم ، واحسبها لم تنبت كلها دفعة واحدة منذ اقيم البيت ، بل نشأت واحدة تلو اخرى ، مستقلاً بعضها عن الكعبة ومكانتها الدينية ، متصلاً بعضها بالكعبة من طبعه ، فمكة لم تكن حين بناء الكعبة على خير ما يمكن ان يصوره خيالنا ، لتزيد على قبائل من العماليق ومن جرهم ، فلما استقر بها اسماعيل ورفع قواعد البيت مع ابيه ابراهيم اقتضى تطور مكة لتصير حضراً او ما يشبه الحضر زماناً طويلاً ، ونقول ما يشبه الحضر ان ظلت مكة وما تزال وفي

طباع اهلها بقايا متخلفة من معاني البداوة الاولى . ويريد بعض المؤرخين ان يذكر انها ظلت على بداوتها الى ان اجتمع امرهـا لقصي في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وعسير ان نتصور بقاء بلد ما لمكة وبيتها العتيق من القداسة في حالة البادية مع مـا يثبت التاريخ من ان امر البيت بقي بعد اسماعيل في يد جرهم اخوال بنيه اجيالاً متعاقبة اقاموها حوله ، ومع ان مكة كانت ملتقى طرق القوافل الى اليمن والى الحيرة والى الشام والى نجد كما كانت تتصل من طريق البحر الاحمر القريب منها بتجارة العالم من غير ان تتعرض الى غزو الغزاة من اية مملكة من ممالك العالم ، فمن الحق لذلك ان نقدر ان مكة ، وقد دعاها ابراهيم بلداً ودعا الله له ان يكون آمناً مطمئناً ، قد عرفت حياة الاستقرار اجيالاً طويلة قبل قصي

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهـد مضاض بن عمرو بن الحارث ، ولقد راجت تجارة مكة خلال هذه الاجيال رواجاً آمن مترفيها وجعلهم ينسون انهم بواد غير ذي ذرع وانهم لذلك بحاجة الى الدأب المتصل واليقظة الدائمة ، وبلغ من نسيانهم ان نضب ماء زمزم ، وان قامت بنفس عرب خزاعة الرغبة في الوثوب الى مناصب الامر في البلد الحرام ولم يجد تحذير مضاض قومه عاقبة ما انغمسوا فيه من ترفهم وايقن ان الامر زائل عنـه

وعنهم فعمد الى زمزم فاعمق حفرها والى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الاموال بالكعبة التي كانت تهدى لها فدفنها بقاع البئر واهال الرمال عليها ، رجاء ان يعود له الامر يوماً فيفيد من الكشف عنها . وخرج ومعه بنو اسماعيل من مكة ووليت خزاعة امرها وظلت تتوارثه حتى آل الى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي

و كانت ام قصي فاطمة بنت سعد بن سيل قد تزوجت من كلاب فولدت له زهرة وقصياً ثم هلك كلاب وقصي طفل في المهد، وتزوجت فاطمة من ربيعة بن حرام فرحل بها الى الشام وهناك ولدت له دراجا ، و كبر قصي وهو لا يعرف لنفسه اباً غير ربيعة ،ووقع بينه وبين آل ربيعة شر فعيره بانه في جوارهم وانه ليس منهم ،وشكا قصي الى امه ما عير به، قالت يابني انك والله لا كرم منهم اباً ،انت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام . وقدم قصي مكة واقام بها وعرف عنه فيها من الجد وحسن الرأي ،ماجعله موضع احترام اهلها واهله فيها . و كانت سدانة البيت في خزاعة لحليل بن حبشية ، و كان رجلاً ثاقب النظر حسن التقدير ما لبث ان خطب قصي اليه ابنته (حبي) حتى رحب به وزوجه منها . واستمر دأب قصي في السعي والتجارة فكثرت امواله كما كثر اولاده وعظم بين قومه

شرفه ، ومات حليل بعد ان اوصى بمفتاح البيت الحرام لحبي زوج قصي ، واعتذرت حبي عن ذلك وجعلت المفتاح لابي غبشان الخزاعي ، وكان ابو غبشان سكيراً فاعوزه الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قصياً بزق من خمر . وقدرت خزاعة ما يصيب مكانتها بمكة اذا بقيت سدانة الكعبة لقصي بعد ان كثر ماله وبعد ان بدأت قريش تجتمع حوله فانكروا ان يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام : واستنفر قصي قريشاً ورأت بعض القبائل انه احكم المقيمين بمكة واعظمهم قدراً فانضموا له واجلوا خزاعة عن مكة واجتمعت مناصب البيت كلها لقصي واقر القوم له بالملك عليهم

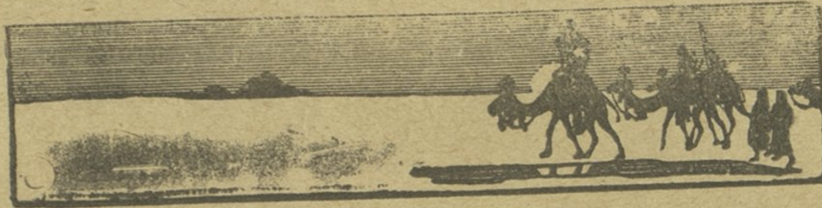
ويذهب البعض كما قدمنا الى ان مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة الى ان تولى قصي امرها ، ويعللون ذلك بان خزاعة وجرهما قبلها لم يكونوا يريدون ان يكون الى جوار بيت الله بيت غيره ، وانهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون الى الحل ، ويضيف هذا البعض ان قصياً لما تم له امر مكة جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرته ليتشاوروا في امور المدينة ، ولم يكن يتم امر الا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل الا في هذه الدار ، وبنت قريش بامر قصي حول الكعبة دورها وتركوا مكاناً كافياً

للطواف بالبيت وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه الى المطاف

وكان عبد الدار اكبر ابناء قصي، لكن اخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه امام الناس وقد شرف فيهم، فلما كبر قصي وضعف بدنه ولم يبق قادراً على تولي امور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلم اليه مفتاح البيت كما اعطاه السقاية واللواء والرفادة، وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي يصنع منه في موسم الحاج طعاماً ينال منه من الحاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد. وكان قصي اول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتزبهم واخرج واياهم خزاعة من مكة، فرضها عليهم وقال لهم: «يامعشر قريش انكم جيران الله واهل بيته واهل حرمه، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم احق الاضياف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً ايام الحج حتى يصدروا عنكم.»

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر ابيه وتولاها ابناؤه من بعده. لكن ابناء عبد مناف كانوا اشرف في قومهم واعظم مكانة. لذلك اجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على ان يأخذوا ما بايدي ابناء عمومتهم، وتفرق رأي قريش تنصر طائفة هؤلاء، واخرى اولئك، وعقد بنو مناف حلف المطيبين لانهم غمسوا ايديهم في طيب جاؤا به الى الكعبة واقسموا

الا ينقضون حلفهم ، وعقد بنو عبد الدار حلف الاحلاف ، وكان هؤلاء واولئك يوشكون ان يقتتلوا في حرب تذيب قريشاً ، اذ تداعي الناس الى الصلح على ان يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، ورضي الفريقان بذلك وظل الامر عليه الى ان جاء الاسلام .



- ٣ -

اجداد محمد

كان هاشم كبير قومه وكان ذا يسار فولى السقاية والرفادة ودعا قومه الى مثل ما دعاهم اليه قصي جده ، دعاهم الى ان يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو في اطعام الحاج اثناء الموسم ، فزوار الله وحجاج بيته هم ضيف الله ، واحق الضيف بالكرامة ضيف الله . وكذلك كان يطعم الحاج جميعاً حتى يصدروا عن مكة ولم يقف امر هاشم عند هذا ، بل اتصل بره وكرمه باهل مكة انفسهم ، اصابتهم سنة بجدب فجاء لهم من الطعام وثرد لهم الثريد بما جعلهم ينظرون من جديد الى الحياة بوجه باسم . وهاشم هو كذلك الذي سن رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام . وبهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت مكانتها في انحاء شبه الجزيرة جمعاء ، واعتبرت العاصمة المعترف بها وطوع هذا الازدهار لابناء عبد مناف ان يعقدوا مع جيرانهم معاهدات امن وسلام . وقد عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من

الامبراطور على الاذن لقريش بان تجوب الشام في امن وطمأنينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشي كما عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعة جاه كما ازدادت يساراً ، وبلغ اهلها من المهارة في التجارة حتى اصبحوا ولا يدانيهم فيها مدان من اهل عصرهم ، كانت القوافل تجيء اليها من كل صوب وتصدر عنها في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الاسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها او لتصريفها عنها ، ولذلك مهر اهلها في النسيئة والربا وفي كل ما يتصل بالتجارة من اسباب المعاملات

وظل هاشم يتقدم به السن وهو في مكانته على رئاسة مكة لا يفكر احد في منافسته حتى خيل لابن اخيه امية بن عبد شمس انه قد بلغ مكاناً يسول له هذه المنافسة ، لكنه لم يقدر وغاب على امره ، وبقي الامر لهاشم وترك امية مكة الى الشام عشر سنوات كاملة ، وان هاشماً لفي رحلته يوماً عائداً من الشام ماراً بالمدينة اذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تطل على قوم يتجرون لها ، تلك سلمى بنت عمرو الخزرجية ، فاعجب هاشم بها وسأل ان كانت عصمتها بيدها خطبها الى نفسها ، فرضيت لعلمها بمكانته من قومه ، واقامت معه بمكة زمناً عادت بعده الى المدينة حيث ولدت له ولداً ظل معها بيثرب

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغزة اثناء احدى رحلات الصيف، فخلفه اخوه المطلب في مناصبه . وكان المطلب اصغر من اخيه عبد شمس ولكنه كان ذا شرف في القوم وفضل وكانت قريش انما تسميه الفيض لسماحته وفضله . وطبيعي وذلك مكان المطلب من قومه ان تبقى الامور تسير سيرتها مطمئنة هانئة

وفكر المطلب يوماً في ابن اخيه هاشم فذهب الى المدينة وطلب الى سلمى ان تدفع اليه الفتى وقد بلغ اشده . واردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكة فظنته قريش عبداً له جاء به فتصايحت : عبد المطلب . قال المطلب : ويحكم انما هو ابن اخي قدمت به من المدينة . على ان هذا اللقب غلب على الفتى فدعي به ونسي الناس اسم شيبة الذي تسمي به منذ ولد

واراد المطلب ان يرد على ابن اخيه اموال هاشم ، لكن نوفلاً ابى ووضع يده عليها . فلما اشتد ساعد عبد المطلب استدعى اخواله بالمدينة على عمه كي يردوا عليه حقه ، واقبل ثمانون فارساً من خزرج يثرب لنصرته فاضطر نوفل الى رد ماله اليه ، وقام عبد المطلب في مناصب هاشم له، السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب . وقد لقي في القيام بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليل من المشقة ، فقد كان الى يومئذ وليس له من الابناء الا ولده الحارث ، وكانت سقاية الحاج يؤتى بها ، منذ نضبت زمزم،

من آبار عدة مبعثرة حول مكة فتوضع في احواض الى جوار الكعبة . وقد كانت كثرة الولد عوناً على تسيير هذا العمل والاشراف عليه ، فاما ولم يكن لعبد المطلب من ولد حين ولي السقاية والرفادة الا الحارث فقد عناه الامر وطال فيه تفكيره . وكانت العرب ما تزال تذكر زمزم منذ طمها مضاض ابن عمر لثلاثمائة من السنين خلت ، وتتمنى لو انها كانت باقية ما تزال ، وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه اكثرهم تفكيراً في هذا الامر واشدهم تمنياً ان يكون ، ولقد الح الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف اثناء نومه يحضه على ان يحفر البئر التي تفجرت تحت اقدام جده اسماعيل ، والح الهاتف يدله على مظان وجودها ، والح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدي اليها بين الوثنين اساف ونائلة ، وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب واسياف مضاض الجرهمي ، وارادت قريش ان تشارك عبد المطلب في البئر وفيما وجد بها فقال لهم : لا . ولكن هلم الي امر نصف بيني وبينكم ، نضرب عليها بالقداح نجعل للكعبة قدحين ، ولي قدحين : ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه علي شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شي له . فارتضوا رأيه ثم اعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة ، فتخلف قدحا قريش وخرجت الاسياف لعبد المطلب والغزالتان

للكعبة ، فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة وضرب في الباب غزالتا الذهب حلية للبيت الحرام ، واقام عبد المطلب على سقاية الحاج بعد ان يسرتها زمزم له

واحس عبد المطلب قلة حوله في قومه لقلة اولاده فنذر ان ولد له عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم لينحرن احدهم لله عند الكعبة، وتوافى بنوه عشراً انس فيهم المقدرة على ان يمنعوه فدعاهم الى الوفاء بنذره فاطاعوا . وفي سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الابناء اسمه على قدح واخذها عبد المطلب وذهب به الى صاحب القداح عند هبل في جوف الكعبة ،وكانت العرب كلما اشتدت بها الحيرة في امر لجأت الى صاحب القداح كي يستفتي لها كبير آلهة الاصنام عن طريق القداح ، وكان عبد الله بن عبد المطلب اصغر ابنائه واحبهم لذلك اليه ، فلما ضرب صاحب القداح القداح التي عليها اسماء هؤلاء الابناء ليختار هبل من بينها من ينحره ابوه خرج القدح على عبد الله ، فاخذ عبد المطلب الفتى بيده وذهب به ينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين اساف ونائلة ، اذ ذاك قامت قريش كلها من انديتها تهيب به ان لا يفعل، وان يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذراء ، وتردد عبد المطلب لدى الحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة . قال المغيرة بن عبد الله المخزومي : ان كان فداؤه باموالنا فديناه، وتشاور القوم

واستقر رأيهم على الذهاب الى عرافة بيثرب لها في مثل هذه الامور رأي . وجاؤا العرافة فاستمهلتهم الى الغد ثم قالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا عشراً من الابل . قالت : فارجعوا الى بلادكم ثم يقربوا وقربوا عشراً من الابل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم . وفعلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون في الابل حتى بلغت مائة عند ذلك خرجت القداح على الابل فقالت قريش لعبد المطلب وكان اثناء ذلك كله واقفاً يدعو ربه : قد رضي ربك ياعبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات . وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الابل فاطمأن عبد المطلب الى رضى ربه ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا يمنع

بذلك تجري كتب السيرة فتصف طرفاً من عوائد العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل في نفس الوقت على ما بلغت مكة في بلاد العرب من مقام كريم ببيتها الحرام ، وقد ادى ذلك الى اقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها لعلها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها ، فاقام الغساسنة بيتاً بالحيرة، واقام ابرهة الاشرم بيتاً باليمن فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عنها ، وقد عني ابرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر

الاثاث ما خيل اليه معه انه صارف العرب وصارف اهل مكة انفسهم اليه . فلما رأى العرب لا تتجه الا الى البيت العتيق ، ورأى اهل اليمن يدعون البيت الذي بني ، ولا يعتبرون حجهم مقبولاً الا بمكة لم يجد عامل النجاشي وسيلة الا هدم بيت ابراهيم واسماعيل ، وتهيأ للحرب في جيش من الحبشة تقدمه هو على فيل عظيم ركبه فلما سمعت العرب بذلك خافت العاقبة وعظم عليها ان يقدم رجل حبشي على هدم بيت حجهم ومقام اصنامهم ، وهب رجل كان من اشراف اهل اليمن وملوكهم يدعى ذانفر فدعا قومه ومن اجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة ابرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله لكنه لم يستطع ان يصمد لابرهة بل هزم واخذ اسيراً ، وهزم كذلك نفيل بن حبيب الخثعمي حين جمع قومه من قبيلتي (شهران وناهس) واخذ هو الآخر اسيراً فاقام نفسه دليلاً ابرهة وجيشه ، فلما نزل ابرهة الطائف كلمه اهلها بان بيتهم ليس هو البيت الذي يريد ، انما هو بيت اللات ، وبعثوا معه بمن يدله على مكة ، فلما اقترب ابرهة من مكة بعث رجلاً من الحبشة على فرسان له فساق اليه اموال اهل تهامة من قريش وغيرهم وبينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهمت قريش ومن معهم من اهل مكة بقتاله فرأوا ان لا طاقة لهم به ، وبعث ابرهة رجلاً من رجاله يدعى حناطة فسأل عن سيد مكة ، فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم فابلغه رسالة ابرهة

اليه انه لم يأت لحرب وانما جاء لهدم البيت فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء اهلها . فلما ذكر له عبد المطلب انهم لا يريدون حرباً سار به حناطة ومع عبد المطلب بعض ابنائه وبعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش . واكرم ابرهة وفادة عبد المطلب واجابه الى رد ابله اليه ، لكنه رفض رفضاً باتاً كل حديث في امر الكعبة ورجوعه عن هدمها برغم ما عرض عليه وفد مكة من النزول له عن ثلث ثروة تهامة . وعاد عبد المطلب وقومه الى مكة فنصح الى الناس بها ان يخرجوا منها الى شعاب الجبل خيفة من ابرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق . وكانت ليلة ليلاء تلك التي فكر فيها القوم في هجر بلدهم وما هو نازل بها وبهم وذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فاخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدي على بيت الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لابرهة ان يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود ادراجه الى اليمن ، كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش وبدأ يفتك به . وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت من الريح من ناحية البحر ، واصابت العدوى ابرهة نفسه فاخذه الروع وامر قومه بالعودة الى اليمن وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم كل يوم

بغير حساب ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد تأثر جسمه من المرض فلم يقم الا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه ، وبذلك ارخ اهل مكة عام الفيل هذا ، وقدسه القرآن بذكره : ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيراً ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول

***

زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية وزاد تبعاً لذلك في مكانتها التجارية وزاد اهلها انصرافاً في التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها او الاعتداء عليها

وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تطوعه لهم من رخاء وترف على اوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف في هذه الجهة الصحراوية البلقع الجرداء ، فكان لاهلها غرام بالنبيذ اي غرام ، و كانوا يجدون بالنشوة به نعيماً أى نعيم . نعيماً ييسر لهم ان يطلقوا لشهواتهم اعنتها وان يجدوا في الجواري والعبيد الذين يتحرون فيهم والذين يشترونهم متعاً تغريهم بالمزيد منها وتغريهم كذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم واليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كل معتد اثيم تحدثه نفسه بالجناية عليها ، ولم يكن لهم شيء اشهي لهم من ان يجعلوا سمرهم وشرابهم في المدينة

حول بناء الكعبة، وهناك الى جانب ثلاثمائة صنم او تزيد لكل قبيلة من قبائل العرب بينهما صنم او اكثر كان اكابر قريش والمقدمون من اهل مكة، يجلسون يقص كل منهم امر ما اتصل به من اخبار البادية واليمن وجماعة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام مما ترد به القوافل او يتناقله سكان البادية، يصل اليهم على سبيل الرواية تتناقلها قبيلة عن قبيلة وكانت كل قبيلة لها مذيع ملتقط لاسلكي يتلقى الانباء ويذيعها، يقص كل ما اتصل به من اخبار البادية ويروي روايات جيرانه واصحابه ويشرب نبيذه ويعد نفسه بعد سمر الكعبة لسمر اشبع لاهوائه وامتع لشهواته، وتظل هذه الاصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية ن جعلت الكعبة بيتاً حراماً ومكة بلداً آمناً، وللاصنام على السامرين ان لا يدخل مكة كتابي الا ان يكون اجيراً لا يتحدث من امر دينه ومن امر كتابه عن شيء، ولذلك لم تكن ثمت جاليات من اليهود كما كان بيثرب ولا من النصارى كما كان بنجران، وانما كانت مكة وكعبتها قدس اقداس الوثنية تحميها من كل محدف في امرها وتحتمي بها من العدوان عليها وتستقل بنفسها كما كانت تستقل كل قبيلة من قبائل العرب بنفسها، لا ترضى باستقلالها بديلاً ولا تغنى من الحياة بغير هذا الاستقلال في حمى اوثانها

وكانت منازل اهل مكة تحيط بدار الكعبة وتقترب منها او تبتعد عنها تبعاً لما لكل اسرة وفخذ من جلال خطر وجليل مقام . فكان القرشيون اقربهم اليها داراً واكثرهم بها اتصالاً ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم وكل القاب التشريف الدينية الوثنية التي قامت في سبيلها حروب وانعقدت من اجلها احلاف ووضعت من اجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تحفظ في الكعبة تسجيلاً لها واشهاداً للآلهة الاصنام على ما فيها حتى ينزل غضبهم بمن يخل بتعهداتها . وفيما وراء منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الخطر ثم تلي هذه منازل من دونهم حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين ، وكان النصارى واليهود بمكة عبيداً كما قدمنا فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء ، وكان لذلك ما يتحدثون به من قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيداً عن ان يتصل بسمع امجاد قريش واشراف اهل البلد الحرام . وكان ما اخذوا يستمعون له من حديث الناس عن نبي يظهر بين العرب قد اخذ يقلق بعض المضاجع حتى لقد عتب ابو سفيان يوماً على امية بن ابي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر . وربما كان من حق ابي سفيان يومئذ ان يقول لصاحبه : ان هؤلاء الرهبان انما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون لانهم في

جهل من امر دينهم فهم بحاجة الى نبي يدلهم عليه . اما نحن الذين نتخذ الاصنام ليقربونا الى الله زلفى فلا حاجة بنا الى شيء من هذا ، ويجب علينا ان نحارب كل حديث من مثله . كان من حقه ان يقول مثل هذا لانه في تعصبه لمكة ووثنيتها لم يكن يقدر ان ساعة الهدى بالباب ، وان نبوة محمد عليه السلام اقتربت وان من بلاد العرب الوثنية سيضيء العالم كله نور التوحيد وكلمة الحق .

وكان عبد الله بن عبد المطلب فتى وسيماً جميل الطلعة ، وكانت اوانس مكة ونساؤها معجبات لذلك به . وزادهن به اعجاباً حديث الفداء والمائة من الابل التي لم يرض هبل بما دونها فداء له ، لكن القدر كان اعد عبد الله لا كرم ابوة عرف التاريخ . وكان قد اعد آمنة بنت وهب لتكون اما لابن عبد الله ، لذلك تزوجها ، ولم تك الا اشهر بعد زواجه منها حتى مات لم ينجه من الموت فداء أيا كان نوعه ، وبقيت آمنة من بعده لتلد محمداً ولتموت ومحمد ما يزال طفلا .



— ٤ —

مولد النبي ونشأته

ولد محمد (عليه السلام) في مكة سنة سبعين وخمسمائة بعد الميلاد وبعد وفاة والده عبد الله بشهرين ، وكانت الليلة التي وضعته امه فيها عجيبة حقاً ، فقد اسرع الى مؤاساتها عند الوضع نساء بني هاشم ، فقضين معها الليل كله ، وشهدن فيها ما اعجبهن وادهشهن ولم تكن والدة النبي اقل صويحباتها اكباراً ودهشة ، واعجاباً وانكاراً ، فقد كانت ترى في ما يرى النائم ان نوراً خرج منها فاضاء قصور بصرى من مشارف الشام ، ثم راح يسوي الارض امامها ويضيء لها ما حول الشام من مواطن وامصار ، واذا بالسماء غير السماء والارض غير الارض ، واذا بهما مليئتان بالنور مشرقتان مضيئتان ، واذا نجوم السماء تدنو من الارض حتى لكأنها تريد ان تلم بها ، وتجلس على اديمها ...

ويشب الفتى ، وان للسماء فيه لرأيا ، فيظل في حجر آمنة امه ما يشاء الله ان يظل ، حتى تصدر المراضع عن البادية ، وتمشي الى

مكة ، يطلبن من فتيانها من يتولين تربيته والعناية بامره ، كما هي العادة عند العرب ، وكانت بينهن حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية خرجت على اتانها تقصد مكة تلتمس الرضعاء كصويحباتها ، فيعرض عليهن محمد فتأباه كل واحدة منهن ، اذا قيل له انه يتيم ، ذلك انهن انما كن يرجون المعروف من والد الصبي ، فاذا كان الصبي يتيما فلا فائدة من هذا المعروف ، ولا امل في شيء من الوفر والمال .

وترى حليمة نفسها دون ما رضيع ، وقد حملت كل واحدة من صويحباتها واحداً ، فتعود ادراجها الى اليتيم تأخذه ، لئلا يقال انها تعود وليس عندها ما توفر لسواها ، وقد كانت حليمة وزوجها في شظف من العيش كثير ، وفي وابل من الفقر وفير .

ويشب الفتى في مواطنه الجديدة في البادية ، فتغمر البركة مرضعته ، ويستفيض الخير في ما لديها من شاء وابل ، ثم يعود الى امه فلا تستقيم معه حتى تتوفى في الابواء وهي قرية بين مكة والمدينة ، فيتولاه جده عبد المطلب بعنايته وعطفه ، فاذا انتقل هذا الى ربه شمله عمه ابو طالب بمثل ما يشمل به ولده من حنان وعطف وبر ومعروف

ويذهب اليتيم مع عمه الى الشام في تجارة له ، فاذا اصبح فتى

فشا بين قومه صدق حديثه وعظم امانته وكرم خلقه ، فتعلم بامره خديجة بنت خويلد وهي من سيدات قريش ، فتعرض عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجراً ، وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، فيتقبل محمد ذلك ويذهب في تجارتها الى الشام ثم يكر راجعاً الى مكة ، وقد وفق في تجارته هذه كل التوفيق .

وتسر خديجة ويبلغها الشيء الكثير عن محمد واخلاقه واستقامته فتعرض عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ اوسط نساء قريش واعظمهن شرفاً واكثرهن مالا ، وكان كل رجل من قومها حريصاً على زواجها لو يقدر عليه ، وتقبل به ، فلما تحدثت الى محمد بعزمها ذكر ذلك لاعمامه فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد فخطبها اليه فتزوجها ، واصدقها محمد عشرين بكرة ، وكانت اول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها في حياتها

وتمضي السنون وليس في حياة محمد ما يستحق ذكراً او يستلفت نظراً ، فقد كانت سنين هادئة ناعمة لا يضطرب فيها حديث ولا حادث ، يمضي فيها محمد وقته وما بين حاشيتي نهاره اما في تجارة لزوجه او في حوار وحديث مع رجالات مكة في عهده ، ويذهب المسيو ديسون الى ان بعض المؤرخين يذكر عن

محمد في ما يذكره انه كان كارهاً للاصنام ، بعيداً عن عبادتها والتقرب منها ، وان كان لا يعلم انه سينشيء في مقبلات الاعوام ديناً يبدل الارض غير الارض ، ويحدث في العالم ظاهرة جديدة لا تزال آثارها بعيدة المدى ، عظيمة الخطورة والمصاير

***

فلما بلغ الاربعين من عمره راح يخلو بنفسه اياماً ، ولم يكن شيء احب اليه من ان يخلو وحده بنفسه ، وكانت له عادة ان يخرج لغار حراء وهو جبل على مقربة من مكة ، ينصرف فيه لنفسه ويتعبد فيه وحده ، فلما كانت السنة الاربعين جاء الى خديجة زوجه من خلوته هذه مضطرباً قلقاً وقال لها :

— لقد جائني جبريل الملك هـذا الليل فقال لي : اقرأ ؟ فقلت ما انا بقارىء ، فكرر علي ذلك ثلاثاً ثم قال لي في الثالثة :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

فقالت خديجة : ابشر يا ابن العم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت الى ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتاب وسمع من اهل التوراة والانجيل ، فاخبرته بما اخبرها

به محمد انه رأى وسمع

فقال ورقة : والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبي هذه الامة ، فقولي له فليثبت

فرجعت خديجة الى محمد فاخبرته بقول ورقة ، فاطمأن وراح يطوف بالكعبة سبع مرات ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد ينقطع عنه الوحي ابداً

ولقد حدث مرة ان فتر الوحي عنه فترة فشق ذلك على النبي واحزنه فجاءه جبريل بسورة يقسم له فيها ربه وهو الذي اكرمه بما اكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه .

قال تعالى : « والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ، فاما اليتيم فلا تقهر . واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث »

ومضت اعوام ثلاثة ومحمد يدعو فيها من يأمنهم من قومه ، ويستخلصهم من عشيرته الاقربين الى الاسلام فلم يتقبل دعوته الا اقلهم ، ثم امره الله باظهار دعوته ففعل ، فكان يلاقي الذين اسلموا من قريش عناء كثيراً وشراً وبيلاً

ووثبت كل قبيلة فيها على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، وامتنع النبي عنهم بعمه ابي طالب وآل هاشم ، وكان جواب النبي على هذه المظالم والعناء والايذاء ينزل به من قومه ، الصبر الجميل والجواب اللطيف الرقيق ، فلما توفيت خديجة وابو طالب زاد ايذاء قومه له ولاصحابه بعد ان هلك من كان يدفعهم عنه ، ويردهم عن ايذائه

وكان قوم من المدينة قد استمعوا الى النبي يعرض عليهم الاسلام لما قدموا مكة للتجارة وغيرها من الشؤون ، فيتقبلونه منه دينًا ويذهبون الى المدينة ينشرونه فيها ، ويذيعونه بين قومهم ورجالاتهم ، فلما احس النبي ازدياد البلاء عليه وعلى المسلمين ، وعلم ان مكة قد اعتزمت قتله وتشريد قومه ، رأى رحمة بالمستضعفين من المسلمين ان يغادرها الى المدينة ، حيث كانت له عصبة تحميه وتعصمه ، فتقبله اهل المدينة من المسلمين بالترحاب والهتاف والاهازيج

***

وبهجرة النبي الى المدينة ، ينتقل الاسلام من دين مستضعف الى دين تؤيده عصبة قوية ، وتحميه سيوف ماضية وقلوب جريئة وافئدة يغمرها الحماس تريد ان يعلو هذا الدين الجزيرة كلها ، وان يلم هذا الخير العرب كلهم من اقصى الجزيرة الى أقصاها ، لقد

كان رجالات المدينة فرقاً واحزاباً ، فوحد الاسلام بينهم ، واقر العدل في ربوعهم والانصاف في مواطنهم ، فلم لا يتوفر هذا الخير على الجزيرة كلها ولم لا ينالها مثل ما نالهم ، فتصبح الجزيرة قوة ويصبح العرب شيئاً خطيراً

ولقد كان حتماً على النبي بعد نزوله الى المدينة وتأييد سكانها له ان يناصب اهل مكة جماعة المسلمين العداء الذين اخرجوهم من ديارهم وآذوهم في دينهم ، وان تشتد هذه الخصومة حتى تتصل منها الى السيف الذي يخرج من غمده في عدة معارك وغزوات اصبح النبي معها على مثل اليقين من ان العرب جميعها لن تطمئن الى دعوته وتؤيده الا ان يدخل مكة فاتحاً ، وهي كعبة العرب ، وسيدة مدن الجزيرة

ولقد راع اهل مكة وبهرهم ما شاهدوه من منزلة النبي بين صحبه وانصاره لما مشى المسلمون الى مكة يريدون العمرة فابى عليهم اهلها فكروا راجعين ، اقول شد ما راعهم وبهرهم اكرام المسلمين لنبيهم واحترامهم له ، فراحوا يقولون هذا اكرام واحترام لم يظفر بهما كسرى ولا قيصر ، لقد كان النبي اذا راح يتوضأ لا يدع المسلمون قطرة من الماء تسقط الى الارض ، يتناولونها بايديهم وانفسهم ثم يمسحون بها وجوههم تبركاً واحتراماً ، وهو شيء جديد لا عهد للعرب بمثله في هذه الجزيرة التي كان الفرد الواحد منها سيد

قومه ورأس عشيرته ، فاصبحوا بنعمة الله اخواناً يؤمنون بالله ويرفعون رأساً الى السماء ماتعنو الا لعظمة الله جل جلاله ، ولرسوله هذا النبي العربي الذي اعزهم بعد ذل واغناهم بعد فقر ، وخلق في روحهم وانفسهم شيئاً جديداً فيه روعة وجدة وخيلاء ، وفيه سلطان كبير

لقد اضطر محمد الى السيف قسراً ، ولو تركه العرب وشأنه لفضل البرهان يقرع به اسماعهم صباح مساء بان الله واحد ، وان محمداً رسوله ، ولكن العرب راحت تؤذيه وتؤذي اصحابه ان يقولوا ان الله ربنا وربكم

واذن فلا بد لمحمد وانصاره ان ارادوا نشر اسم الله وذيوع هذا الدين الجديد ، ان يدفعوا العدوان بمثله ، وكذلك اضطر محمد الى السيف يقتحم به مواطن الكفر والبهتان ، ويدفع به عدوان قومه وايذاء الاعراب في الجاهلية ، فان مكن الله له في النصر تقبله حامداً شاكراً ، وان ناله فشل حمد واثنى ، وشدد من عزائم اصحابه وبعث في روحهم الجرأة والامل ، بانهم واصلون الى اغراضهم ولو كره الكافرون

ويمكن الله لمحمد من اقتحام مكة فيدخلها على رأس عشرة آلاف من المسلمين فلا يعرض لاهلها الذين آذوه واصحابه بسوء ولا يأمر رجاله بالفتك بهم ويغرق في الحلم اغراقاً لم تشهد العرب

مثله في الجاهلية ولا بعد الاسلام ، فيعاملهم بالحسنى ، ويزيدهم بسطة في العطاء ويفضلهم في العطاء حتى على الانصار والمهاجرين من رجاله وانصاره الاولين، والحديث عن حلمه وجوده وعفوه عند المقدرة اكثر من ان نأتي عليه وحسبك صبره على قريش كما قدمنا ومصابرته الشدائد الصعبة معهم ، فلما اظفره الله عليهم وحكمه فيهم عفا عنهم وقال: انتم الطلقاء

ويبعث بعد ذلك محمد بكتبه الى ملوك عصره ، ويصل كتابه الى كسرى عظيم الفرس فيمزقه، وهو لا يدري انه بتمزيقه كتاب النبي قد مزق ملكه بيده ، وان العرب مقتحمون ارضه وامصاره وان امبراطوريته صائرة بعد سنوات قريبة الى الزوال والانهيار تحكم شيعة محمد بالامر فيها ، ويستقيم لهذا الدين سلطانه بين امصارها وانها قد لا تكون بعد اليوم وفي عهد الامبراطورية العربية المقبلة غير مصر من الامصار العديدة التي يسيطر عليها خليفة المسلمين من مثل المدينة او الشام او بغداد

***

وتنتهي حياة النبي (عليه السلام) بعد عودته من حجة الوداع ، وقد احس بعدها بالمرض ينتابه في فترات ، ثم اشتدت وطأته عليه فحبس نفسه في منزله ثم في غرفة لعائشة زوجه وهو يشكر الله ان ارسله للعالمين رسولاً فاتبعته معظم الجزيرة العربية،

وبلغ الدعوة الى اكثر ملوك الارض ، ذلك ان الاسلام لم يكن ديناً للعرب ، وانما هو دين الانسانية من اقصى الارض الى اقصاها

عليه الصلاة

ولقد راح الكتاب المسلمون يصفون النبي (عليه السلام) فما تركوا ناحية من صفاته واخلاقه الا عرضوا لها واشاروا اليها ، وليس في وصفهم هذا لنبيهم شيء يتصل بالمعجزات ، ولا بما هو فوق الطبيعة ، كان محمد ممتازاً بجمال خلقه واخلاقه ، وقد كان بعض الذين يدعوهم الى الاسلام لا يحتاجون الى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عندهم من اخلاقه السابقة وصدقه المتواتر عند الجميع في مكة وغير مكة . لقد كان واحدهم اذا اراد ان يأتمن احداً على مال او غيره ، فلا يرى غير محمد خليقاً بمثل هذه الامانة ، وذلك قبل الاسلام وبعده ، وقد كانت زوجه خديجة تعرف فيه ذلك وليس اعلم من الزوجة بزوجها ، فلما جاءها بخبر الوحي ، مضطرباً خائفاً وجلاً لاول عهده به قالت له :

– ما كان الله ليخزيك ابداً انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق

وكان نظيفاً ومن اكثر الناس حياء واكثرهم عند العورات اغضاء ، كان اشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان اذا كره شيئاً عرفه اصحابه في وجهه ، لطيف البشرة رقيق الظاهر ، لا يشافه

احداً بما يكره حياء و كرم نفس

و كان من اوسع الناس صدراً واصدقهم لهجة والينهم عريكة واكرمهم عشرة ، و كان يؤلف الناس ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، يتفقد اصحابه ويعطي كلا من جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه ، ومن جالسه او قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها او بميسور من القول ، وسع الناس بسعة صدره وخلقه ، فصار لهم اباً وصاروا عنده في الحق سواء دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه . يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها . قال انس خادمه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي اف قط ... وما قال لشيء صنعته لمَ صنعته ؟ ولا لشيء تركته لمَ تركته ؟

و كان يمازح اصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر و كان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه او آثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان ابى

كان اكثر الناس تبسماً واطيبهم نفساً ... ولما قدم عليه وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم

فقال له اصحابه : نحن نكفيك ..

فقال لهم : كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب ان اكافئهم .

وكان من اشد الناس تواضعاً واقلهم كبراً ، يعود المساكين ويجالس الفقراء يجيب دعوة العبد ، ويجلس بين اصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس

***

يقول الكاتب الافرنسي ديسون : ان محمداً كان كثير الزوجات ولكنه لم يكن في ذلك اكثر من نبي الله سليمان ، الذي عددت التوراة خبر زوجاته وهن كثر

وكان هذا الرجل الذي اسس هذا الدين العظيم الخطورة لا يدعي المعجزات ، حتى انه كان ليذهب الى اقصى من ذلك فينكر بعض الحوادث التي ارتبطت بمعجزة او ما يتصل بذلك ويردها الى اصلها وحالها ، ونضرب على ذلك الامثال نروج فيها لما ذهبنا اليه وذهب اليه المسيو ديسون من عدم ادعاء النبي المعجزات ..

لما ولد للنبي ابراهيم دفعه لام بردة خولة بنت المنذر لترضعه ، واعطاها قطعة نخل فكانت ترضعه في بني مازن وترجع به الى المدينة ، فكان النبي ينطلق اليها فيدخل البيت ويأخذ الغلام الصغير

يقبله ويشمه ثم يرجع

ولما احتضر الفتى وجاء النبي وجده في حجر امه فاخذه عليه السلام في حجره وقال : يا ابراهيم انا لن نغني عنك من الله شيئاً .

ثم ذرفت عيناه عليه السلام وقال : انا بك يا ابراهيم لمحزونون ، تبكي العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » .

ووقف محمد صلى الله عليه وسلم على قبر ابراهيم بعد ان رش قبره بماء ، واشار اليه بعلامة وقال :

« يابني ان القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب انا لله وانا اليه راجعون ، يابني ، قل الله ربي ، والاسلام ديني ، ورسول الله ابي »

وبكت الصحابة ومنهم عمر حتى ارتفع صوته بالبكاء فالتفت اليه النبي قائلاً : ما يبكيك ياعمر ؟

قال : يارسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ويحتاج الى تلقين مثلك يلقنه التوحيد في مثل هذا الوقت فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك !! .

ونزلت الآية : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في

الحيـاة الدنيا والآخرة » فطابت الانفس وسكنت القلوب وشكروا الله

وكسفت الشمس في ذلك اليوم ، فقال قائل من المسلمين لقد كسفت لموت ابراهيم

ولو كان محمد كاذباً في نبوته وغير صادق في رسالته لترك هذه الكلمة تسير سبيلها بين الناس تؤيد نبوته ، وتعزز مكانته ، ولكنه ابى غير الحق ، وابى ان تصدر كلمة كهذه مليئة بالباطل ، مغمورة بالافك والبهتان فقال في حديث صحيح :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده فلا ينكسفان لموت احد ولا لحياته »

***

ولما كتب النبي كتاباً لقيصر يدعوه فيه للاسلام ، ارسل قيصر رأس شرطته يبحث له في بيت المقدس عن بعض رجال العرب الذين يقصدونها للتجارة وغير التجارة يسألهم عن هذا النبي الجديد

وكان ابو سفيان قبل ان يؤمن بالاسلام في بيت المقدس فحدث قائلاً :

— اتانا رسول قيصر فانطلق بنا حتى قدمنا اليه فاذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فقال لترجمانه : سلهم ايهم اقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم انه نبي

فقال ابو سفيان : انا اقربهم نسباً اليه ... ذلك انه لم يكن في الركب يومئذ من بني عبد مناف غيره ، لان عبد مناف هو الاب الرابع لبني عبدمناف وكذلك لابي سفيان

فسألني قيصر ما قرابتك منه ؟

قلت : هو ابن عمي ...

فقال قيصر : ادن مني

ثم امر باصحابي فجعلوا خلف ظهري ، ثم قال لترجمانه :

— قل لاصحابه انما قدمت هذا امامكم لاسأله عن هذا الرجل الذي يدعي انه نبي ، وانما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذباً ان قاله

قال ابو سفيان : فوالله لولا الحياء يومئذ ان يردوا علي كذباً لكذبت ، ولكني استحييت فصدقت وانا كاره

ثم قال قيصر لترجمانه : قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو منا ذو نسب

— وهل قال هذا القول احد قبله ؟

قلت : لا

— وهل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل ان يقول ما قال ؟

قلت : لا

— وهل كان من آبائه ملك ؟

قلت : لا

— وكيف عقله ورأيه؟

قلت لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً قط

قال : فاشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم

قلت : بل ضعفاؤهم

ذلك ان اكثر من تبع النبي كان من الضعفاء واشراف القوم الذين تبعوه كابي بكر وعمر وغيرهما قليل

قال : هل يزيدون او ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون

قال : فهل يرتد احد منهم عن دينه

قلت : لا

قال : فهل يغدر اذا عاهد

قلت : لا ونحن الان منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها

قال : فهل قاتلتموه

قلت : نعم

قال : وكيف حربكم وحربه

قلت : دول وسجال ، ندال عليه مرة كما في أحد ، ويدال

علينا اخرى كما في بدر

قال : فما يأمركم به؟

قلت : يأمرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد اباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة وبالوفاء بالعهد واداء الامانة

***

وبعد فهذا رأي ابي سفيان في الاسلام والنبي يوم ، كان في خصومته المعروفة مع النبي وصحبه ، ونترك للمؤلف المسيو ديسون ان يختم فصله هذا في النبي عليه السلام قائلاً :

وليس يزعم احد اليوم ان محمداً قد راح يزور ديناً ، وانه كاذب في دعواه افاك في دعوته

وقد اشار الى شيء من هذا الكاتب الانكليزي المعروف كارليل ، ونختم نحن بدورنا فصلنا هذا برأيين في الاسلام لكاتبين معاصرين من المسيحيين لا نستطيع ان نتهمهما بالعطف على الاسلام والمسلمين

قال المسيو برتلمي سانت هيليار :

«لقد كان محمد اذكى العرب في عهده واكثرهم تقوى وديناً وارحبهم صدراً وارفقهم باعدائه وخصوم دينه ، وما استقامت

امبراطوريته ... الا بسبب تفوقه على رجال عصره ، واما الدين الذي راح يدعو اليه فقد كان خيراً عظيماً على الشعوب التي اعتنقته وآمنت به »

وقال زويمر المبشر الانكليزي المشهور :

« ان عبقرية محمد هي السبب في نجاحه واستطارة شأنه ، يضاف الى هذا كله معرفته العظيمة بالديانات في عصره ، وقوته في الاقناع ، وحماسه الذي غمر اصحابه ، وامتد منه الى انصاره ، وقوته في اجتذاب القلوب اليه ، ومقدرته في الادارة والحرب ولباقته السياسية الفائقة »

* * *

وليس يعرف التاريخ صبياً تأثر بحياة الطفولة والصبا واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما اقام في هذه الدنيا ووفى للذين بروا به واحسنوا اليه كمحمد بن عبد الله ، لم يكد يقدر على البر واسداء المعروف واظهار شكره للنعمة واعترافه بالجميل حتى ضرب للناس في ذلك اروع الامثال وابلغها تأثيراً في القلوب

ارضعته امة لابي لهب يقال لها (ثويبة) اياماً قبل ان تأخذه حليمة ، فلما علم ذلك من امرها حفظ لها هذه النعمة ، وعرف لها هذا الجميل ، فلم يكد يقدر على شكرها والبر بها حتى جهد في ذلك ، واذا به يحمل زوجه خديجة على ان تسعى عند ابي لهب في ان

تشتري منه هذه الامة لتعتقها ، فيأبى ابو لهب فيتصل معروف الرضيع بامه هذه ما اقام بمكة ، حتى اذا هاجر الى المدينة لم ينس امه ولم يهملها ، وانما ارسل اليها الصلات والكسوة من حين الى حين حتى اذا عاد من غزوة خيبر وقيل له : ان (ثويبة) قد ماتت سأل عن قرابتها ليصلهم بما كان يصلها به من معروف فانبيء بانها لم تترك احداً

وحياة اهل البادية مليئة بالضنك مغمورة بالشقاء ، فانظر الى حليمة تهبط الى مكة تستعين بابنها على اثقال الحياة ، فيكلم لها خديجة فتمنحها بعيراً ، واربعين شاة ، وانظر اليها تستأذن عليه مرة اخرى فاذا ادخلت عليه ورآها قال : امي!! امي!!

ثم بسط رداءه فاجلسها عليه ، ثم ادخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مساً ثم قضى حاجتها

ثم انظر اليه عند ما عظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها وقد نصره الله يوم حنين على هوازن ، فهزم الجند واحتوى المال وسبي الذرية والنساء ، وقسم الغنائم بين المسلمين ، وانه (بالجعرانة) صباح يوم — وهو موضع بين مكة والطائف — واذا وفد من هوازن يقبل عليه مسلماً منبئاً باسلام من وراءه من الناس ، وفي هذا الوفد عمه من الرضاعة ، واذا عمه هذا يتحدث اليه فيقول :

— يارسول الله ، ان في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا وارضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيماً ، فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ونحن مع ذلك من اصلك وعشيرتك فامنن علينا من الله عليك

فيجيبه النبي : لقد استأنيت بكم حتى ظننت انكم لاتقدمون وقد قسمت السبي وجرت فيه السهام ، فما كان منه لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واسأل لكم الناس ، فاذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله فاني ساقول لكم : ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وساطلب لكم الى الناس

فلما صلى الظهر قام الوفد فاتم ما امر به ، ووفى النبي لهم بوعده وشفع لهم عند الناس ، فردت عليهم نساؤهم وابناؤهم لم يأب ذلك الا نفر من الاعراب اشترى منهم ما كان في ايديهم من السبي ورده على اهله .

هذا وفاء بليغ الاثر في النفوس ، وابلغ منه هذه الطريقة الطاهرة البريئة في استخلاص السبي من الذين ملكوه ، فيها وفاء ، وفيها رد للحرية على آلاف من الناس ، وفيها اقرار للامن والسلم في قبيلة

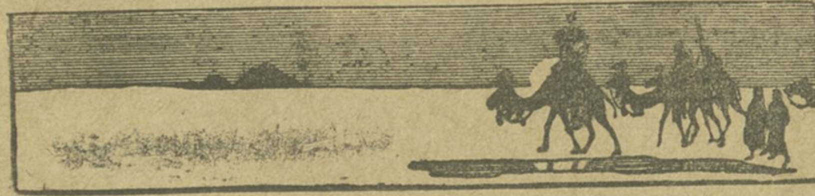
ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة والحقد ، وتهيئتها لقبول الاسلام والنصح للمسلمين في صدق واخلاص

ثم ان للرسول وفاء آخر يملأ القلوب رحمة ويمزقها لوعة واسى لانه وفاء المحب الصادق في الحب العاجز عن النفع الذي لا يملك لمن يحب خيراً ، ذلك ان لله قدراً مهما تعظم القلوب فلن تغيره وتبدله لقد كان محمد اشد الناس براً بامه ووفاء لعمه ، مر بقبر امه عام الحديبية فاستأذن ربه في ان يزور القبر ، فاذن له فزاره واصلحه ومكث عنده حيناً ، ثم استأذن ربه في ان يستغفر لامه فابى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كئيباً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون لاكتئابه

ودخل مكة عام الفتح ظافراً منتصراً ، وبينا هو في بعض مواضعها رأى اصل قبر فعطف عليه واقام عنده ، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر فلم يؤذن له ، فانصرف محزوناً كئيباً وبكى فبكى المسلمون ، وما رأى الناس يوماً اكثر باكياً من ذلك اليوم واختلط امر هذا القبر على الرواة فذهب قوم الى انه قبر جده ، وقال آخرون انه قبر عمه ابي طالب ، وعرض محمد الاسلام على عمه ، والح عليه ، وكاد الرجل يقبل لولا حمية الجاهلية ، فلما مات قال محمد: لاستغفرن لك .. فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً .

تبارك الله ، رجل يخرج الله به امة كاملة من الظلمات الى النور ويفتح له ابواب الخير على مصاريعها الى آخر الدهر ، ثم يأبى الله عليه ان يستغفر لامه وعمه، وان ينقذ اهله الاقربين الذين أدوه الى الناس وحموه حتى ادى الامانة ، وبلغ الرسالة

ولكن ذلك هو العدل الالهي محتوم لا يقبل اخذاً ولا رداً ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة « وما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم » والله سبحانه وتعالى «لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »



- ٥ -

وثبة الاسلام

لما انتقل النبي الى الرفيق الاعلى كان الاسلام يغمر الجزيرة العربية كلها على وجه التقريب ، فلا يمضي قرن واحد حتى يقتحم هذا الدين العالم من اقصاه الى اقصاه ويمتد من اسبانيا الى الهند ، وهذا حدث يصح ان يقال انه الوحيد من نوعه في تاريخ الحضارة الحاضرة

ولقد راح بعضهم يفسرون سرعة انتشار الاسلام هذه ، بماالقي في روعهم من ان السيف سببه ، وان هذه الجماعات المختلفة العدد المضطربة الانظمة والتقاليد والعادات قد راحت تتقبله دينـاً بقوة السيف والحرب

ولئن كان هذا حقاً فانه ليس بمقلل من خطورة هذا الحدث الغريب ، ولا هو بمضعف من قوة الاسلام وسرعة انتشاره ، ولكن المعلوم ان ما تتقبله جماعة من الجماعات بالسيف ليس يدوم طويلاً واذا نظرنا الى الجماعات التي اعتنقت الاسلام ديناً ، وصرفنا النظر عن اسبانيا التي محق فيها الاسلام بقوة السيف والعسف والاضطهاد

نرى أن الامم التي اعتنقت الاسلام ايام الفتح الاسلامي، ومنذ الف ومايتي سنة مثلاً لا تزال تدين به وتدافع عنه ولا ترضى به بديلاً .

ثم ان اجبار الامم والجماعات على اعتناق دين من الاديان بالسيف يستوجب عدداً عظيماً من الفاتحين يقيم بعضهم في كل مدينة وقرية يفتحها الجيش محافظة على الامن واقراراً للدين الجديد، وهذا امر لا يؤيده التاريخ القديم ، كما واننا على مثل اليقين من ان العرب لم يكن لديهم في فتوحاتهم مثل هذا العدد العديد من الجند يتولى حراسة القرى والامصار المفتوحة، ويقوم فيها على نشر دينه الجديد بالقوة والعنف .

واذن فيجب علينا ان نلتمس سبباً غير ما تقدم نفسر به هذا الزحف العجيب وهذه الوثبة العربية الغريبة المدهشة

فاذا نظرنا الى التاريخ المعاصر نرى ان الاسلام ما يزال يتقدم حثيثاً في المواطن القريبة منه ، والامصار التي تتصل معه ، واعجب من ذلك انه دين يقاوم كل ما يعرض عليه من اديان جديدة ، ويرفض كل نظم تقدم له ولا تسير وفاقاً لشرائع دينه وتقاليد نبيه ولديه قوة في التبسط غريبة ليست لدى دين غيره من الاديان المعروفة ، ومن المعروف ان احداً من المسلمين لا يتقبل المسيحية ولكن كثيراً من المسيحيين يتقبلون الاسلام حتى اليوم وهذه ظاهرة عجيبة تفسر لك ما في الاسلام من خوارق مدهشة

ولا بد ان يكون السبب الاساسي في تبسطه السريع في القرن السابع هو نفس السبب في تبسطه اليوم وتقدمه الحاضر ، ولعل هذا يعود الى سهولته اكثر من كل شيء آخر ، فهل لا يختلف مع العقل السليم والامور المقررة ، والمسلم يستطيع بكلمات بسيطة قليلة بسط عقائد دينه ، فيتفهمها الوثني حالاً وبدقائق قليلة ، وهو مع ذلك لا يأتيك بشيء جديد يختلف عن الاديان الحاضرة ، ولكنه يأتيك بذلك في صورة معقولة بسيطة لا تتحمل تأويلاً ولا تفسيراً ، هذا الى احترامه لتقاليد الآخرين وعوائد الغير لا يتعرض لها ولا يحاربها ، ثم انه اليوم يتقدم دون ما سلاح ولا قوة ولا بطش ، وهذا يزيد في روعته وتأثيره ، فهو والحالة هذه دين يوافق الذهنية الانسانية ، وليس صحيحاً ما يقال من انه يغوي الناس بعقائده المتفككة التي لا تضطرب في شدة ولا قوة ، والواقع غير ذلك لان الاسلام شديد في بعض عقائده واموره ، فهناك الصيام ، وتحريم الاشربة المسكرة ، ولحم الخنزير وغير ذلك مما هو شديد على النفوس التي تعودت عليها .

***

وليس من شك في ان وثبة العرب المسلمين من الجزيرة العربية واقتحامهم العالم المعمور في عهدهم ، واقدامهم على هذه الفتوحات البعيدة المدى امر يثير الدهشة ويبعث على الاكبار ، خصوصاً اذا

نظرنا الى قلة عدد العرب المسلمين في ذلك العهد ، ونقص الاهبة عندهم واقتحامهم لدولتين من دول العالم — الفرس والروما ن — وهما كما يعلم القاريء من اعظم دول العالم في ذلك العهد قوة وعـدداً وعدداً وحضارة وثقافة

ولعلنا لا نخطيء وجه الصواب اذا رحنا نفسر هذه الوثبة وفاقاً للتاريخ ووفاقاً للذهنية العربية الاسلامية في ذلك العهد ، واذا نظرنا الى هذه الذهنية وجدناها تضطرب في توحيد هذا الاسلام لهـذه القبائـل العربية المشتتة المفككة الاوصال ، المتهدمـة العقلية والعقيدة ، وجمعها وتنظيمها في نظم دينية واجتماعيـة واخلاقية قوية جداً

ولقد كان الدين الجديد شديد الاثر في التشريع الذي خلق من القبائل العربية مجتمعاً منتظماً متماسكاً تستند في روحها الى اقوى مباديء الطبيعة البشرية ومشاعرها . واذا ذكرنا ان هذا التشريع الذي انشأه محمد منذ ثلاثمائة سنة والف سنة ما يزال حتى يومنـا هذا تشريعاً تسير الدول الاسلامية وفاقاً لهديه ، وقفنا على صورة هذا التشريع واثره العجيب في نشأة الحكومة الاسلامية الاولى والاسباب التي مكنت لهذه الحكومة بالتبسط والاستبحار في العمران والامتداد بفتوحاتها الى اقصى الارض

لقد اشار المؤرخ فنلي الى هذه الظاهرة الخطيرة حين قال :

« قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول اتباعه واعمالهم، ووضعت عبقريته اساس نظام ديني سياسي ما يزال يحكم الملايين من البشر من اجناس مختلفة وصفات متباينة ، وان نجاح محمد كمتشرع بين اقدم الامم الاسيوية، وثبات نظمه مدى اجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي ، دليل على ان هذا الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من اكبر العبقريات »

واذا اضفنا الى هذا مبدأ الوحدة في العقيدة الالهية وفي القومية وفي الادارة الدينية والمدنية والسياسية والقضائية والعسكرية واندماج كل هذه جميعها في نظام رئيسي واحد ، وقعنا ايضاً على عامل قوي كان السبب في التفاف القبائل المختلفة حول الدين الجديد واجماعها على بث دعوته ، ودفع سلطانه بحماسة وعزم كان لهما الاثر الاعظم في سير الفتوحات العربية وبلوغها هذا المدى البعيد السحيق .

واذا ذكرنا ايضاً اضطراب السياسة الدينية والسياسية والمدنية والاجتماعية في مملكتي الاكاسرة والرومان ، واتحاد كل هذه عند العرب الفاتحين ادركنا السبب الثاني في نجاح الفتوحات العربية واستطاعتها اقتحام الدولتين ، وانهيارهما امامها

ثم ان العرب الفاتحين كانوا يقدمون في فتوحاتهم امثلة سامية

من الاعتدال وضبط النفس واجتناب الكبائر والاساليب الوحشية التي كانت تسود صحف الحرب في تلك العصور ، والتي كان الرومان والفرس في فتوحاتهم يستعملونها ويروجون لها

خذ مثلاً وصية ابي بكر الخليفة الاول لقواده لما بسط يده في الفتح وبعثهم لغزو البلاد الفارسية والرومية فان هذه الوصية تعد من اروع الوصايا التاريخية، وليس لها مثيل في تاريخ العالم ولقد وصى ابو بكر جيش اسامة حين بعثه لمحاربة غير المسلمين فقال :

« لا تخونوا ،ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ،وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا انفسهم له »

وجيش هذه سياسته، وهذه وصية قائده الاكبر له من الحق ان ينتصر ومن الحق ان يجد له من ابناء البلاد المفتوحة اعواناً وانصاراً يساعدونه على عدوه الذي كان كثير الفظائع ، بعيداً عن العدل مضطرب السياسة ، مختلف الاحزاب

***

ولا بد من القول ان لسياسة الخلفاء الراشدين اللبقة شأناً في هذه الفتوحات العظيمة ، واذا اضفنا الى ذلك ان الاسلام لم

يكن في فتوحاته هذه وانتصاراته العظيمة يجبر الامم المغلوبة على اعتناق دينه بل يتركهم احراراً يمارسون عقائدهم وطقوسهم وفاقاً لتقاليدهم وعاداتهم ، وان هذا كان شيئاً جديداً لم تكن تحلم بمثله هذه الامم التى كانت تلاقي الامرين من العنف والاضطهاد ، كما وان الضرائب التي فرضها الحاكمون المسلمون كانت شيئاً قليلاً بالنسبة للضرائب التي كانت تفرض عليهم قبلاً من حكامهم السابقين، ادركنا الاثر الذي احدثه الاسلام في قلوب سكان البلاد المغلوبة ، مما حمل سكان هذه البلاد على تقبل الاسلام عن رغبة لا عن رهبة

وقد قال المؤرخ الاستاذجون سميث في هذا الصدد ما يأتي :

« ان الاقبال العام على اعتناق دين جديد على اثر فتح اجنبي امر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الاسلام يقف وحيداً في هذا الفوز »

وقال المؤرخ دوزي بهذا المعنى ايضاً :

« ان هذه الظاهرة تبدو لاول وهلة لغزاً غريباً لا سيما متى علمنا ان هذ الدين الجديد لم يفرض فرضاً على احد »

وبينما كانت الدولة الرومانية وآسيا الوثنية ، وافريقيا المضطربة الاغراض والمذاهب في ما يشبه انعدام العدالة المذهبية والحجر على الروحيات والآراء والمعتقدات ، كان الاسلام يتقدم الى الشعوب

المفتوحة بيزنين او نعمتين لم تكن تعرفهما هذه الامم والجماعات في عهد حكوماتها، الاولى نعمة الحرية الدينية ، والثانية نعمة الاعتدال في فرض الضرائب وحصرها في حدود معينة ، وهما باعتراف جمهرة المؤرخين من اهم العوامل التي مهدت للعرب سبيلهم الى تأييد الشعوب المغلوبة ، بل الى معاونتها الفعلية في محاربة الرومان وغير الرومان

وقد استقام للاسلام الظفر في سورية ومصر باسرع مما استقام له ذلك في اي بلد آخر ،وسببه ان النصرانية كانت قد سادت مصر وسورية بقوة النار والسيف ، ولم تلق اليهما في اثواب واضحة محددة مقررة ، ولا كانت فيهما راسخة الجذور ، بارزة العقائد والتعاليم . وكان العسف والارهاق والمطاردة الدينية وتعدد الاديان والمذاهب ، وتضارب العقائد والنحل قد ادت بهما الى اسوأ اطوار الانحلال السياسي والفوضى الاجتماعية ، هذا الى انه كان ثمة شبه كبير بين كثير من عقائد الاسلام والنصرانية وكان الظفر الذي اقترن بتقدم الاسلام مرجحاً قوياً له على غيره وسواه ،ودعوة عميقة الاثر في سبيل اكباره،كما ان ضروب العدالة والرفق التي اقترنت بسياسة الغزاة المسلمين الاوائل كانت حجة ناهضة على جور الحكومات في هاتيك العصور،وعلى ان النظم الدينية المتبعة لم تكن ممثلاً حقيقياً لمثل العدالة والاخاء ، أفلم تكن هذه كلها شواهد

قاطعة عميقة الاثر على ان الدين الجديد جدير بالاتباع وانه وهو الظافر الدين الحق . وكان الاعتقاد في حدوث المعجزات سلاحاً مسموماً ارتد الى صدر القائلين به من رجال الكنيسة . فانه لم تحدث معجزة ترد عادية الاسلام على النصرانية ولم تنقض الصواعق على اولئك الغزاة الاشداء الذين اجتاحوا سواد العالم القديم في زهاء جيل من الزمن

***

يقول ديسون : ونضرب مثلاً على سرعة هذه الفتوحات العربية فتح العرب لاسبانيا . لقد مشى اليها طارق على رأس عشرة آلاف من جنده فكسر الجيش (الجوتي) الذي اراد محاربته ثم امده موسى بن نصير القائد العربي بعشرين الف جندي مشى هو على رأسهم، فتمكن العرب بهذا الجيش القليل العدد البعيد عن مواطنه وامصاره ومراكزه من اقتحام اسبانيا من اقصاها الى اقصاها ودفع الجوث الى الجبال يعتصمون بها ويتخذونها مواطن جديدة لهم

وراح المسلمون بعد هذا الفتح يحترمون العقائد المذهبية عند الاسبان فلا يعرضون لها بنكر ولا انكار، وتركوا للمسيحيين قضاتهم ، وعقائدهم وقوانينهم وكنائسهم ، واكتفوا منهم بجزية زهيدة يدفعها الى الخزانة العامة كل فرد منهم . ولقد تمكن العرب من فتح اسبانيا في اقل من سنتين ولم يتمكن المسيحيون من

استرجاعها الا بعد معارك دامت ثمانية قرون

واخذ العرب يتقدمون بعد ذلك الى فرنسا ، فسقطت (ناربيون) في ايديهم ، وكذلك كان مصير (كار كاسون) ووصلت خيول الجيش العربي الى (ليون واوتون) ولما اراد العرب التقدم نحو (تور) سنة ٧٣٢ ردهم شارل مارتل في معركة (بواتييه) فلما اراد مطاردة الجيش العربي لم يوفق لان سكان البلاد الافرنسية راحوا يحاربون مع المسلمين العرب حين رأوا ما يقوم به جنود شارل مارتل من النهب والسلب ، وما يزال اثر الغزو العربي باقياً في بعض البلاد الافرنسية حتى يومنا هذا

فاذا قام الخلفاء العباسيون كان الاسلام قد وصل الى ذروته في التضخم السياسي والاستبحار في العمران ، وانتشار الفتوحات ، لقد كانت الامبراطورية العربية تمتد من الهند الى فرنسا ومن البحر المتوسط الى الصحراء ، وكان هارون الرشيد يتبادل الرسائل والهدايا مع شارلمان امبراطور الافرنسيين ويأخذ الجزية من امبراطور القسطنطينية

ولكن الروح التي سادت هذه الامبراطورية العظيمة، والحماسة التي غذتها ، والتضحية التي خلقتها ، كان قد اخذ الضعف يدب اليها جميعها ، فانصرف المسلمون عندئذ الى الخلافات الدينية والبحوث المذهبية ، وهذه وان كانت تدل على تقدم فكري وفلسفي عميق ،

الا انها كانت موءذنة بانحطاط المملكة الاسلامية ، وقد اتصل هذا الاختلاف في النظريات الدينية الى الاختلاف في الشوءون السياسية ومصاير الحكم ، فاخذت الامبراطورية الاسلامية تنهار رويداً رويداً ، ولكن الاسلام ظل قائما كقوة عالمية عظيمة



- ٦ -

استبحار الحضارة والعمران

ليس هنا مجال التبسط في حضارة الامبراطورية العربية وعمرانها ولبس الى هذا سبيل في هذا الفصل الذي نريده كثير القصد بعيداً عن الاغراض في بحث اسباب هذه الحضارة والوانها ونواحيها وهي كثيرة الآماد بعيدة المدى ، وانه لشرف عظيم للاسلام في اول نشأته وبدأ ظهوره ، وفي ايام النبي عامة والخلفاء من بعده خاصة ان يتوفر على تغذية العبقريات من اتباعه لا فرق في ذلك عنده بين عربي وعجمي ، ولا بين شريف ومولى ، فكان من اثر ذلك ظهور هذه الشخصيات الفذة في التاريخ الاسلامي من اعاجم وموالي وتمكنها من القيام بقسطها في انشاء هذه الحضارة وتقويتها وتغذيتها ومساعدتها على التبسط والاستبحار في الامبراطورية العربية من اقصاها الى اقصاها .

وانه لغريب حقاً توفر هذه الظاهرة على الظهور في بدء الاسلام ولعل مرد ذلك الى هذه الاخوية الاسلامية التي راح يدعو اليها محمد ، ويعمل على تعزيزها وتغذيتها فقد عودتنا امثال هذه الحركات

الدينية وغير الدينية في بدء ظهورها ان تكون ضيقة شديدة في ما يتصل بالغرباء عنها في النسب واللغة ، واما الاسلام فقد انكر ذلك كل الانكار ، وايد الاخوة الاسلامية كل التأييد ، وقال لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى والعمل الصالح ، واذا كان هناك من تعصب شاهدناه في عهد الامويين وغير الامويين ، فقد كان هذا التعصب ضيقاً ، وكانت عصبيته ترجع الى العصبية الجاهلية العربية اتي كانت لا تزال قوية الاثر ، حتى لقد كانت هذه العصبية تتصل بالعرب بعضهم مع بعض ، واما الاسلام فلا شأن له في هذه العصبية ، ولاهو ارادها ، ولا دعا اليها

ولقد كانت الحكومة في عهد الخلفاء الراشدين فالامويين والعباسيين حكومة موفقة حقاً ، رنعني بذلك انها حكومة كانت نعمل على الاحسان في ما يتصل بالمصالح الشعبية ، من اقامة العدل وتغذية العقل ، واحقاق الحق ، وليس هناك سبيل الى انتقاد هذه الحكومة وانتقاصها فقد كانت تنعم بنظم تضطرب في ارقى المثل العليا التي تحاولها اليوم حكومات العالم المتمدن

وقد توفرت هذه الحكومات على فتح الطرق ، وتشجيع العمارة ، وانشاء البرد ، وتقسيم الضرائب تقسيماً عادلاً لا سبيل معه الى الشكوى ، وكان يتوالى على حكم الامصار المختلفة في الامبراطورية قواد وحكام احسنوا في اداراتهم المختلفة ، ووفقوا

كل التوفيق في ما يتصل بهذه الامصار من احقاق حق ، ورفع مظلمة ، ودفع مضرة ، ورفع المستوى الادبي والعلمي والمساعدة في نشر المعارف وازدهار الحضارة الادبية والعلمية

فليس عجباً والحالة هذه ، والامبراطورية العربية المسلمة تضطرب في ديموقراطية لا تعرف نظام الاقطاع ، ولا تأثير للكهنة فيها ، ولا شأن للارستوقراطية بها ، ولا امل في توفر المناصب الوراثية عندها ، ان نرى عبداً يصبح وزيراً ، ومولى ينصب حاكماً ، وعائلة لا تتصل والعرب بنسب وسبب تتسلم زمام الاحكام ، وتسير الحكم في هذه الامبراطورية العظيمة وفاقاً لاهوائها واغراضها

وهي بيئة مدهشة حقاً ، هذه التي تسمح للفرد النشيط الذكي بان يصبح سيداً حاكماً ، وان يبلغ بجده ونشاطه ارقى المناصب وارفع المراتب

ويضاف الى ذلك رغبة العرب في طلب المعرفة التي امر بها النبي وفرضها على المسلمين فرضاً ، واتصال هؤلاء الاقوام بالحضارات السابقة ، والمساعدة التي كان يقدمها مفكرو هؤلاء الاقوام والجماعات في مختلف فنون المعرفة ، بتأثير العطف العربي عليهم ، وتبسط العدل في امصارهم وربوعهم

***

وباتصال العرب بالامم والجماعات التي لا تتصل مع العرب

بسبب موصول خصوصاً الفرس منهم اخذت الثورة التي كانت تلم بالعربي وتستولي على كل مناحيه ومنازعه تهدأ وتلين ، ونريد بالثورة هذه الشدة في معاملاته ، وهذه النار التي تجعله غاضباً لاتفه الاسباب ، وابسط الامور ، وقد يذهب بعضهم الى الايمان بتأثير المرأة العربية في هذه الناحية ، بعد ان اخذ يظهر منهن الشاعرات والاديبات ، ولا يجب ان نتناسى في هذا الباب ما كانت تتمتع به المرأة في عهد الامبراطورية العربية من حقوق ومزايا لم تكن تتمتع بها زميلاتها الاوروبيات اللواتي كن لا يزلن في عهد الجاهلية وعهد البربرية المحضة ، فان الامبراطور شارلمان لم ير كبير امر في ان يضرب شقيقته في وجهها اثر جدال بينها وبينه فيكسر لها اربعاً من ثناياها

وليس يسع المرء الا الاشارة في هذا الفصل ايضاً الى هذه الاخلاق العربية الرفيعة من حفظ الجار ، والمحافظة على العهد واكرام الضيف ، والاغراق في البذل والعطاء . وهي صفات كان عزيزاً ان تجد مثلها في الامم والشعوب التي كانت تساوق العرب الحياة في ماضيات الايام

واما تقدم العرب في الشعر والانشاء والتاريخ والادب وغير ذلك من الوان المعارف فلسنا نجد له مكاناً في هذا الفصل لغزارة هذا البحث وكثرة من نبغ من الفحول والكتاب والشعراء

واما في الفلسفة فقد ترجم العرب كتب الاغريقيين جميعهم ، وكانت الترجمة صادقة صحيحة بحيث انها كانت اساساً لدراسة الفلسفة في عهد النهضة ، وفضل العرب في هذا الباب عظيم الخطر ، فهم الذين حموا الفلسفة اليونانية من الانقراض والتضعضع بترجمتها الى لغتهم وقد انتقلت ترجماتهم هذه الى القسطنطينية ومنها الى ايطاليا حيث ترجمت الى اللغة اللاتينية وانتشرت منها في العالم الاوربي .

ولا بد من الاشارة الى ان الفلاسفة العرب لم يتقبلوا الفلسفة اليونانية كامر واقع ، وكنظريات مقررة ثابتة لا تحتمل جدلاً ولا بحثاً ، ولكنهم راحوا يتناولونها بالتعديل والتحوير فخرجت فلسفتهم وفيها جدة وعمق افاضت على الفلسفة اليونانية جلالاً جديداً وانتاجاً رائعاً ، وقد كان للفلسفة العربية من الشأن والخطورة في القرون المتوسطة حتى انها كانت الشعلة الوحيدة التي راحت تضيء نور المعرفة مدى اجيال عديدة

***

لقد اشرت في هذا الفصل الى اني لست بمتوسع فيه التوسع المطلوب ، ولا بمتبسط فيه التبسط المنتظر ، اعتقاداً مني ان القاريء واجد ما يطلبه من مثل هذا البحث في مطولات كتب الادب والتاريخ ، ولذلك فاني مختصر ما قدمت في هذا الباب

ختام ما تقدم بالقول ان العرب الذين انشأوا هذه الحضارة الرفيعة المقام الجميلة الآثار قد ادوا للعالم في عهدهم ، ولاوربا من بعدهم خدمة عظيمة لان حضارتهم هذه ظلت تنير الطرق والمفاوز لكل الامم التي عاشت معهم ، او تبسط عمرانها بعد انهيار حضارتهم

وليس يصح ان اختم هذا الفصل دون ما كلمة في الحروب الصليبيـة ، واني تارك للمسيو ديسون نفسه ان يتناولها في كتابه بصراحته التي يشكر عليها قال :

« من الحق ان نتناول بالبحث هذا الحدث التاريخي الخطير المصاير وهو الحروب الصليبية التي اقامت الاسلام والمسيحية وجهاً لوجه مدى سنوات عديدة ، واثارت من الخصومة والبغضاء بينهما ما يزال اثره قوياً ظاهراً

لقد توسلت الكنيسة بكثير من الطرق الى تخفيف هذه الشعلة البربرية التي كانت لا تزال تلم في ابناء الغرب وقد وفقت في غرضها هذا الى حد محدود ، فلما كانت الحروب الصليبية مشي مع الصليبيين اقوام كان همهم السلب والنهب ، وغايتهم السرقة والقتل وزاد في ذلك ما لاقوه في طريقهم الى بيت المقدس من عناء ومشقات ومن تعب وضنك

والواقع ان الصليبيين انفسهم قد ظهروا للمسلمين وغير

المسلمين ايضاً كبرابرة مخيفين حقاً (١) وقد اظهروا في آسيا ضروباً من العنف والفظائع لم تكن تعرفها هذه البلاد التي كان قد مر عليها اربعة قرون وهي تعيش في نظام من العدل العربي لم تكن قد رأته قبلاً (٢)

وقد اقتحم الصليبيون القدس في ١٥ تموز ١٠٩٩ وقتلوا في اليوم نفسه عشرة آلاف من المسلمين التجأوا الى جامع عمر ظناً منهم انه مانعهم عن اعدائهم الفاتحين(٣)ثم لم يكفهم هذا ولا خفف من ثورتهم الدموية شيئاً فراحوا في الاسبوع نفسه يقتلون من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يكونوا من الكاثوليك ما يقرب من ٦٠ الف نسمة(٤)

---

(١) « انهم لا يستحقون لقب الانسان » من كلمة للشاعر سعدي

(٢) وصف (روبرت ل موان) مذبحة سكان (مارات) المسلمين قائلا « لقد بدأت مذبحة الترك في ١٣ كانون الاول ولم يكف ذلك اليوم لقتل جميع الاسرى فاجهزنا على البقية في اليوم التالي »

(٣) « لقد استحر القتل في هيكل سليمان ، وكثرت فيه الجثث حتى ان الجند الذين قاموا بهذه المذبحة لم يعد بامكانهم ان يطيقوا الرائحة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى » الاب ريموند داجيل

(٤) « جنون غريب » هذا ما وصف به (برنارد) الصليبيين عند دخولهم الى القدس فاتحين

وكان خلفاء الصليبيين الاول مثل اجـداده قسوة وشدة وعسفاً وقتلاً ، حتى لقدراح يصفهم بعض رجالات المسيحية وصفاً شديداً وينكر انهم من المسيحية في شيء ابداً ، وحتى ان المسلمين انفسهم تناسوا اختلافاتهم وقاموا جماعة واحـدة لصدهم وقتالهم ، فلم يمض وقت طويل حتى اخرجوهم من القدس والبلاد المقدسة

وقد يذهب البعض الى القول بمـا كان للحروب الصليبية من اثر في تغذية الحضارة الاوربية، بسبب اتصال هؤلاء بالمسلمين المتحضرين ، وهذا قول مليئ بالخطأ لان العلاقات بين الاسلام والمسيحية كانت حسنة جداً قبلاً ، واما بعد الحرب الصليبية فقد اخذت شكلاً دموياً يؤسف له ، وما تزال آثاره بعيدة الاثر شديدة التأثير

***

وبانتهاء الحروب الصليبية اخذ الاسلام يتراجع عن حدوده الاولى ، واخذ الاختلاف يدب بين صفوفه ، واشتدت البدع فيه ، وكثر الايمان بالصلحاء وغير الصلحاء فقامت لهم المساجد والبيع يقصدها المسلمون للزيارة وطلب الدعاء ، ممـا كان من شأنه ان يصرف الاسلام عن سبيله الاول ووحدتـه السالفـة ، ووحدانيته الاولى التي دعا لها محمد وامر بها

ولكن الروح الاسلامية الفتية النقية الطاهرة كانت لاتزال تغمر القلوب التى اخذت تنادى وتعمل لاعادتها سيرتها الاولى ، والامل عظيم بان ترجع هذه الشعلة الاسلامية الى سابق امجادها وماضيات ايامها



-٧-

النهضة الاسلامية الجديدة

بدأت النهضة الاسلامية الجديدة بعبد الوهاب زعيم الوهابية فقد راح هذا يحاول اعادة الاسلام الى تراثه السالف وهديه الماضي وروحه الفطرية التي مكنت له في الفوز ، فغلب العالم في عشرات من الاعوام

وقد وجد عبد الوهاب في محمد ابن السعود عضداً قوياً وعاملاً اسلامياً شريفاً ، تمكن في سنوات قليلة من اعادة الوحدة العربية في قلب الجزيرة العربية ، وراح يعيد تراث السلف الصالح ويقتفي اثر الخلفاء الراشدين في اقامة العدل ، وبسط الامن ، وقد حمات هذه الفكرة الاصلاحية بذورها في الاسلام والامم الاسلامية ، واحس مفكرو الاسلام بالضرورة الملحة الى لم شعثهم ، وتوثيق ما تفرق من شملهم ، والعودة الى القرآن في جميع مايريدونه من احكام ، وما يتطلبونه من معاملات ، وهذه الفكرة في الرجوع الى عقائد الاسلام الاول فكرة خطيرة اخذت تلاقي اليوم كثيراً من الانصار والاعوان ، لانها باعتقاد الجميع السبيل الاوحد الى

اعادة الامجاد الغابرة

والوهابية في الواقع، ليست الا عودة الاسلام الى نشأته الاولى، والايمان بالقرآن والحديث، دون ما تفسير ولا زيادة ولا نقصان، هذا في ما يختص بالمعاملات الدينية طبعاً واما ما يتصل منها بالمعاملات الاجتماعية وغيرها فان محمداً نفسه قد اقر بضرورة التعديل في هذه حين قال اني لست غير رجل منكم فان امرتكم بشيء يتعلق بالدين فاتبعوه، وان امرتكم بشيء يتعلق بالمعاملات الدنيوية فاني لست غير رجل منكم

وقال في مكان آخر: انكم في زمن ان تركتم عشر ما آمركم به هلكتم، وسيأتي زمن اذا اتبع الواحد منكم عشر ما يؤمر به نجا

والواقع ان الاسلام اليوم يقف موقف المسيحية في عهد النهضة، واما رينان فيذهب الى انه يستحيل على الاسلام ان يتقدم ويساير الحضارة الحاضرة، وهي فكرة خاطئة لان المسيحية في بدء النهضة كانت كالاسلام اليوم شديدة ضيقة بحيث لم تكن تسمح لحرية الفكر بالذيوع والانتشار، فلم يمنعها هذا من التطور والتكييف وفاقاً للحضارة ووفاقاً للعلم الحديث، وما نظن الاسلام الا موفقاً في هذا السبيل ناجحاً في التكييف مع الحضارة الحديثة، خصوصاً وانه من اكثر الاديان تأييداً للعلم وتقديراً لحرية الرأي

والفكر الجديد

ألم يأمر النبي اتباعه بطلب العلم من المهد الى اللحد ؟

ألم يقل لهم ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟

ألم يأمرهم بطلب العلم حتى في الصين؟

والواقع ان الاسلام اقرب الى التقدم من سواه من الاديان لانه لا كهنوت فيه ، وليس هناك فيه عقائد مختومة مقررة لا يستطيع تأويلها وعلى الخروج عنها

وليس من ينكر تأثير الحضارة الاوربية الحاضرة على الاسلام وقد سبق للاسلام في ماضيات الايام ان راحت حضارته تقتحم البربرية الاوربية ، وها هي هذه البربرية اليوم وبعد ان اخذت حظها من الحضارة والعمران تدفع الدين الذي عليها للاسلام فتمده وتغمره بارفع ما لديها من معارف وعلوم ومن اختراعات وفكر جديد

والاسلام يتقبل كل هذه رويداً رويداً ، والمسلمون في اقطار العالم يعملون لتفهم هذه الحضارة الغربية الجديدة والاستفادة منها ، ورجالات الاسلام الذين يقودون جماعاتهم الى تفهم هذه الحضارة يجدون اوربا لهم بالمرصاد ، فكان من اثر ذلك ثورتهم على الحكم الغربي الذي يقف حائلاً بين الاسلام وما يحاوله من تفهم الحضارة الجديدة ، وهو ما نشاهد اليوم آثاره في مختلف الاقطار

العربية التي اخذت ترفع عقيرتها مطالبة باستقلالها وحرياتها

***

يضطرب الاسلام اليوم في ظاهرتين عظيمتين ، الاولى تتعلق بالجدة الاسلامية الجديدة في الهند ، وهذه يجب تفصيلها فنقول :

ان زعيم الجدة الاسلامية في الهند هو السيد امير علي ، ولامير علي موءلفات قيمة في هذا المعنى هذه خلاصتها :

«ان الوحدة الالهية تظل الاساس الاول في التعاليم الاسلامية الجديدة ، وسبحانه وتعالى عظيم قوي عادل حكيم رحيم ، واما المعجزات فتنكرها المدرسة الهندية الحديثة وهي تسير في ذلك وفاقاً لتعاليم النبي الذي كان لا يرى في غير القرآن معجزة كبرى اما الانسان فحر في اعماله وهو مسوءول عنها.

واما الصلاة فتصوير لواجبات الانسان نحو ربه ، وتفسير لما يضطرب في قلبه وفوءاده من خضوع وايمان

واما الكعبة التي يولي المسلمون وجوههم شطرها في صلاتهم فبيت له ، والموطن الذي خرج منه الاسلام ونشأ ، والصيام يعلم المرء كيف يضع حداً لشهواته ورغائبه ، ويمكنه من ان يكون حاكماً آمراً على هذه الشهوات والرغائب لا يسيرها الا بمقدار ، ولا يسمح لها ان تذهب به الى الهلاك

واما الزكاة فمن اركان الاسلام الاساسية ، وليس في العالم دين غير الاسلام جعل الزكاة فرضاً من فروض الايمان ، وهو فرض جميل هذا الذي يستطيع به المرء القادر مساعدة الضعفاء والفقراء من بني قومه

واما الحج فرمز الى الاخوة الاسلامية العامة الشاملة التي تجمع بين مختلف الجماعات وشتى الاقوام

والله سبحانه قد خلق في الناس عقولاً فعليهم ان يميزوا بين الخير والشر ، وكل امرؤ مسؤول عن اعماله في الحياة الآخرة

والاسلام يدعو الى الحب والاخوة ، وهو في ذلك يتفق مع المسيحية من انه دين عام لكل الامم والجماعات

وقد قال احد مسلمي الهند : « ان الاسلام الحاضر وما فيه من بدع وخرافات بعيد عن اسلام محمد النبي ، ان القرآن كتاب يجب ان يكون مناراً لنا في اعمالنا ، وهدى لنا في ما نقوم به من واجبات ولكنه ليس حجر عثرة في سبيل تقدمنا ، لان الاسلام ليس معارضاً للتقدم ولا مخاصماً للحضارة الجديدة الصحيحة المفيدة ، واذا ما حذفت البدع والزيادات من الاسلام فانه دين بسيط ، يضطرب في الايمان بالله ورسوله ويأتمر بما امر به الله بلسان رسوله ، وما سوى ذلك فهو زيادات لا فائدة منها »

***

فاذا انتهينا من بحث الجدة الاسلامية في الهند ، فعلينا ان نعرض لهذه الجدة في مصر ، وما كان للشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني من شأن فيها وسيطرة عليها

لقد قال الشيخ الامام محمد عبده : « ان من يريد معرفة دين من الاديان معرفة حقيقية فعليه ان يرجع الى نشأة هذا الدين الاولى واوامره ونواهيه واحكامه وما يتصل به من تعاليم وغيرها ليستطيع ان يحكم على هذا الدين حكماً بعيداً عن الهوى ، غريباً عن الاغراض »

فاذا ما رجع الانسان والحالة هذه الى نشأة الاسلام الاولى وجد ان هذا الدين بسيط جداً ، وان اوامره ونواهيه واحكامه مقررة في القرآن ، مفسرة في الحديث المتواتر عن اقوام لا يرتاب فيهم

واذن فالاسلام دين قوامه القرآن والحديث ، والقرآن كتاب الله ، واذن فلا فائدة والحالة هذه من التقعر في البحث ، والتطرف في الآراء والذهاب الى آماد بعيدة في تفسير هذه الآيات ، وهي قد كتبت بلسان عربي ، وخوطب بها البشر عامة ، لا فئة خاصة من الناس ، ولا اقلية مثقفة منهم :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

وقد كان الشيخ الامام محمد عبده يجد في هذه الآية تأييدا لمذهبه هذا من سهولة الدين وبساطة تعاليمه ، وان ما زيد عليه ليس من الدين في شيء ابداً ، وانه دين العالم كله

وفي القرآن الكريم امثلة كثيرة على هذه الدعوة العالمية الى الاسلام ، والواقع ان الحكم على دين من الاديان كما يقول (الغزالي) يجب ان يكون وفاقاً لفوائده ومنافعه للبشر ، وليس من ينكر منافع الدين الاسلامي لمن اعتنقه من بني الانسان ، ولا كيف خلقهم خلقاً جديداً واعزهم بعد ذل ، ودفعهم في سبيل الحضارة والعمران

والشيخ محمد عبده يذهب مروجاً للاسلام وبساطته قائلاً : انه الدين الوحيد الذي يساير الحضارة ولا يناقض العمران ، وان تعاليمه هي هي لن تتبدل ولا تتغير ما تبدلت الايام وتغيرت المذاهب لانها توافق كل جيل ، وتؤيد كل مذهب ، ولانها تنفع الناس في ماضيات الايام وحاضر لتها ، وفي مقبلاتها

ثم انه دين العقل ، والشيخ عبده اذا كان ينكر البدع الجديدة الا انه لا يتعرض لاوامر الاسلام الجوهرية بل هو يحاول تفسيرها وفاقاً للعلم الحديث ، وفي تفسيره لها روعة جديدة تدلك على انه وفق في هذا التفسير كل التوفيق ، كما انه يعمل ما وسعه

البيان لكي يوفق بين تعاليم القرآن وبين الفلسفة الحديثة

***

والواقع ان القرآن يساير الفلسفة الحديثة كل المسايرة ويتفق معها كل الاتفاق ، فتعاليمه لا تعارض الحضارة الحديثة ، واوامره لا تناقض المبادىء العلمية ، وقد يعجب القارىء من هذا التزاوج بين الفلسفة والقرآن ولكن حسبك تقديراً لآياته وحسبك فهما لمعنى الفلسفة الحقة لتدرك ان لا تضارب هناك ولا تناقض ، فالقرآن ليس كتاب عقيدة وايمان فحسب ، اذ لا يمكن ان تفرض ايماناً الا اذا جعلته في صورة يقبلها العقل ويطمئن اليها الفكر ، ولا يمكن ان يعتقد الانسان عقيدة جديدة دون مبرر قوي وبراهين واضحة

ولم يكن القرآن اول نزوله الا كتاباً يتناوله العرب بالشك والريبة ويتهمون صاحبه بالجنون والسحر ، فكان من الطبيعي في القرآن ان يشفع اقواله بالبرهان الناصع ويقرنها بالدليل المقنع

والقرآن ليس بكتاب تشريع واخلاق فحسب ، فالتشريع والاخلاق لا بد لهما من فلسفة قوية يقومان عليها ، والمشرع والاخلاقي يجب ان يكونا فيلسوفين قبل كل شيء ، فلا يمكن للقرآن ان يحث على الزهد في الدنيا ان لم يتحدث عن قيمة الحياة الآخرة والخلود والبعث وهذه مسائل فلسفية ، كما انه لا يمكن

للقرآن ان يبشر بالتوحيد ان لم يطرق البحث في الخالق وصفاته وماهيته وهذه مسائل فلسفية ايضاً . فالقرآن قد تعرض لكل بحوث الفلسفة فتكلم في الله وفي صفاته ، وعرض للروح و كنهها ، وبحث في الخلود والبعث ، وصور للانسان مثلاً اعلى يجب ان ينشده واختط له طريقاً يجب ان يسلكه

***

تقرأ ديكارت وافلاطون فتحسب ان للفلسفة اسلوباً واحداً يجب الا يحيد عنه الفيلسوف ، هو اسلوب منطقي مرتب منسجم قد لا تخلو عباراته من نواح لا تستطيع لها فهماً الا بعد عناء كثير ولكنك تخطيء اذا انكرت ان للفلسفة اساليب متنوعة تختلف وعقلية القوم الذين برزت بينهم هذه الفلسفة

وقد يكون للعربي خيال رائع وبديهة قوية وخاطر سريع ولكنه بطبيعة حياته المتنقلة الدقيقة يعجز عن التفكير المنظم والبحوث المنطقية الدقيقة فهذه يجب لها الهدوء والاستقرار والبدوي في نزاع دائم مع طبيعة قاسية تأبى عليه الا التمرد فيستغرق هذا النزاع كل وقته . ومن هنا نستطيع ان نفهم اسلوب القرآن في معالجته للمشاكل الفلسفية المعقدة ، فللقرآن اسلوب خاص به يتفق وبدواً يعيشون في الصحراء ، بسيطي التفكير ، ساذجي المنطق فهو يبهرهم ببديع الكلم وحسن اللفظ دون ان يثقلهم بمناقشات

علمية او نظريات غريبة معقدة

والقرآن كثيراً ما يلجأ الى التصوير المادي والامثلة يضربها لتقرب من الاذهان حقائق عميقة ، على ان هذه الحقائق التي اتى بها القرآن لم تكن جديدة كل الجدة على عرب الجاهلية ، بل هي خلاصة ما كانوا يحسون به ويفكرون فيه ، وهي اروع ما كانوا يتناقلونه ويتناجون به ، وهي آخر ما وصلوا اليه من رقي فكري نتيجة لامتزاجهم باليهود والنصارى ونتيجة لاتساع افقهم العقلي بهذا الامتزاج ، واخيراً لاستقرارهم نوعاً ما في بقاع مكة والمدينة .

* * *

ان وحدانية الله هي جوهر البحوث الاسلامية ومحور فلسفة القرآن ، فالارض والسموات لا يمكن ان يكون لهما آلهان اوثلاثة لانه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وتتحقق الوحدانية في ان الله وحده هو الخالق المتصرف في شؤون هذا الكون ، وما الملائكة والجن والبشر عامة ورسلاً وانبياء الا عبيداً له ، يقول يوم يفنيهم : لمن الملك اليوم ? فيجاب لله الواحد القهار .

واما كنه الله وحقيقته فهذا ما يقول عنه القرآن ان العقل البشري اعجز من ان يعقله ويدركه فهو « الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد » ، ونحن مضطرون الى ان

نؤمن بالله ونركن اليه ونوقن بوجوده دون ان ندرك حقيقة هذا الوجود ، فهو «الله الذي لا اله الا هو خالق كل شيء ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير»

وليس هذا الايمان مجرد عقيدة عمياء ، بل هو عقيدة يدعمها العقل والنظر ، اذ لا يمكن تصور وجود دون موجد ، ولا يمكن ان يكون هذا النظام الدقيق الذي يجري على سنته الكون وهذه الحركة الدائمة المستمرة نتيجة الصدف ودواعي الحال، بل هي من صنع منظم خالق قادر « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت » « قل لمن ما في السموات وما في الارض ؟» وفي هذا كله دليل على خلق الله لكل شيء

واقل تفكير فيما يحيط بنا سينتهي الى الاقرار بوجود الله ، فهذه ارض هامدة مجدبة ولكن الماء ينزل عليها فتهتز وتربي وتنبت من كل زوج بهيج ، وهذا ماء مهين يخرج من بين الصلب والترائب فيتحول الى نطفة ثم الى علقة ثم الى مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم يخرج طفلاً جميل التكوين ، ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير

واذا كنا لا نعرف ماهية الله ففي استطاعتنا ان نعرف صفاته فصفات الخالق هي اكمل صفات المخلوق وارقى ما في صفات

البشر ، فاذا كان للبشر حول وقوة « فربك المتين ذو القوة ، ويد الله فوق ايديهم» واذا كان للانسان ذكاء «فان الله خير الماكرين» واذا كان في النفس كرم فان (ربك الاكرم)

وصفات الله ايضاً تتنزه عن نقائص الموجودات ، فالمخلوقات كثيرة متعددة ومن طبيعة الكثرة التنابذ والتضاد ولذا فالله واحد لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والمخلوقات تتوالد وتتناسل وفي هذا التوالد منقصة لعدم تحقق وجود المولود الا بوجود الوالد ، فالله اذن واحد لم يلد ولم يولد . . . وكثير غير هذا يقدمه لك القرآن في اسلوب سهل ممتنع وتشبيه بديع وامثلة محسوسة وليس معنى هذا ان الفلسفة المعقدة تعطيك فكرة عن الله اكثر من فلسفة القرآن السهلة ، لا فانك لو لجأت الى اشد الفلسفة تعقيداً او اكثرها تعمقاً لخرجت منها بافكار عديدة عن الله ونظريات تملأ جانب الغرور من نفسك ولكنها في نهايتها لا تصل الى اكثر مما وصل اليه القرآن في سهولته وبلاغته ، فليس بين الفلسفات فلسفة واحدة ادعت معرفتها كنه الله او تصورت كيفية وجوده

***

(أو ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى ! انما امره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون)

فالله هو خالق هذا الكون العظيم بما فيه من أجرام ونبات وحيوان وهذه المخلوقات كلها كلمة من كلمات الله . ولا نسل بعد هذا عما اذا كان أصل الوجود مادة او روحاً ، فليست المادة والروح والملائكة والبشر في نظر القرآن الا مظهراً من مظاهر ارادة الله (فانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) ، (قال للسموات والارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين)

وهذه الارادة الالهية العظمى نملك جزءاً منها نحن البشر ، فارادة انسانية واحدة تستطيع باخلاصها وقوتها وشدة ايمانها ان توجه العالم باسره وجهة جديدة ، و كلمة واحدة من قائد جيش تحرك الالوف الى حيث يريد ، وهذه الارادة الانسانية مهما سمت فهي ناقصة ولكنها كاملة في الله ، ومن دواعي كمالها ان تكون ثابتة حكيمة لا يعتورها تغيير ولا تبديل

***

وان كانت المخلوقات قد صدرت عن الله فهي لا شك متصلة به باعتبارها عنوان ارادته ومظهر مشيئته ، فهو لم يخلقها من شيء سابق ولم يأت بها من مادة معينة وانما شاء وجودها فوجدت ، ومنفصلة عنه باعتبار وجودها المستقل عن وجود الله وباعتبار قبولها للفناء والتطور بينما الله خالد لا يتغير ، يحركها ويسيرها كيف شاء في ادارة ثابتة (فلا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل

سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

وعند الله مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، وعلمه يهبط الى الجزئيات كما يصعد الى الكليات «فيعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين» ونحن لا نعرف حقيقة هـذا العلم ، فهو علم لا يعلمه الا الله وحده ولكن لنا فقط ان نتصوره وان تقبله عقولنا اذ ليس غريباً على الخالق الذي سوى نفسك ان يعرف خلجاتها «فلقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد »

***

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال كالفخار »

فالانسان مخلوق من طين ، من عناصر الارض التي يعيش فوقها ، ثم نفخ الله فيه نسمة من روحه فصار بشراً سوياً ، وكان من طبيعة هـذا التركيب ان يكون الانسان خليطاً من الشهوات والحكمة، خليطاً من المادة والروح مزيجاً من الشر والخير ، فالقرآن يعطيك صورتين متناقضتين عن الانسان : فهو حقير مخلوق من ماء مهين في احسن تقويم ثم هو مردود الى اسفل سافلين . هذه هي الصورة الاولى ، واما الثانية فهي ان الله يأمر الملائكة ان تسجد لهذه الحقارة ، والقرآن

يفسر هذا التضارب بان الانسان حقير في مادته وبشهواته عظيم في روحانيته

ومرتبة الانسان تسمو مرتبة الملائكة لو اتيح له التحكم في رغبته والتوفيق الى الخير ، وفي سبيل هذا التحكم قد الهمه الله فجوره وتقواه وزوده بعقل يبين له الرشد من الغي ويميز الحق من الباطل ، وقد تتحكم فينا العادة فتغطي على هذا الالهام ، او تغلنا تقاليد الآباء والاجداد فننسى عقولنا ، ولذا فكثيراً ما يعجب لنا القرآن ويهيب بنا ان نرجع الى عقولنا وتتخلص من قيودنا قائلاً : « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، قد فصلنا الآيات لعلهم يفقهون » وفي هذا التخلص من قيودنا والرجوع الى عقولنا سعادتنا وهناؤنا اذ في الارتفاع بالنفس الانسانية وتحكيم العقل وتنزيهه عن الشهوات المهلكة تحقيق للغاية التي خلقنا الله لاجلها ، فلو عقلنا لفهمنا ان الحياة الدنيا متاع الغرور وان الباقيات الصالحات خير وابقى .

وهكذا يعالج القرآن هذه المشكلة المعقدة في تلك السهولة والبساطة ، فهو يدعوك الى ان تأخذ بنصيبك من الحياة ويحثك على السعي في مناكب الدنيا والاكل من رزقها ولكنه ينصحك الا تبالغ في هذا وتتهالك عليه ، ويحاول ان يسمو بك ويعينك على الارتفاع من حضيض الشهوة بعبادة الله

وذكر اسمه والصلاة له ، فان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفي التأمل في خلقه والتفكر في ملكوته عزة الانسان وعظمته ، وفي التوجه اليه بالغداة والعشي ايقاظ للجانب الروحي منه وتنبيه له

وهكذا ترمي ضروب العبادة من صوم وصلاة وحج الى الاقلال من تحكم الجسد وفك الروح من اساره

ويقول القرآن للذين يأبون هذه الحقيقة « من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها ، ومن كفر فعليه كفره ، وماربك بظلام للعبيد » ويلفتهم الى انما سيصيبونه من مال وجاه ظل زائل لا يدوم ولكنهم اذ يتهالكون عليه يفقدون اعذب ما في الانسانية من صفاء روح وطمأنينة نفس ، وستجابههم هذه الحقيقة في الحياة الاخرى فيتحرقون حسرة ويقولون ياليتنا كنا تراباً ، ويتمنون قائلين ربنا ارجعنا نعمل صالحاً . . .

والحياة الاخرى امر لا شك فيه ، اذ لا يمكن ان يخلق الانسان عبثاً ، وليس بمعقول ان ينتهي هذا النشاط وتلك الحركة الى تراب « وما خلقناكم عبثاً انما الينا مرجعكم ، فمن شاء فليوءمن ومن شاء فليكفر . »

***

يذكر القرآن ان جميع بني آدم عبيد الله ، ويقرر هذه

العبودية بوضوح لا يتطرق اليه شك ، فما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، ولن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ، وفي هذه العبودية التي يمتلىء بها القرآن مصدر جديد لعمقه وعظمته ، فمعني عبودية البشر لله مساواتهم المطلقة لبعضهم ، وبذا يلغي القرآن في كلمة صغيرة كل الفروق الانسانية ، فليس هناك شريف وحقير ولا عبد ولا سيد بل الجميع عبيد الله ، وكلهم متساوون في هذه العبودية ، وانما رفع الله بعضنا فوق بعض درجات ليتخذ بعضنا بعضاً سخرياً لعمار الدنيا وتعمير الكون ، ولا فضل لاحد على الآخر الا بالتقوى « فان اكرمكم عند الله اتقاكم » على ان هذه المساواة ليست مساواة مطلقة مجردة من كل قيد وشرط اذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولا تستوي الظلمات والنور ولا الظل ولا الحرور ..

وقد دعا القرآن الى الاخوة والتسامح « فانما المؤمنون اخوة» وهذه الاخوة تمتد الى الانسانية كلها « فان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

واضاف القرآن — في علاقة البشر ببعضهم — الى التسامح فضيلة التعاون ورفع من شأنها حتى جعلها ركناً من اركان الاسلام فالزكاة فريضة واجبة يساعد فيها الغني الفقير

وبهذا يصور القرآن للانسان مثلاً اعلى في طوقه ان يحققه : في الاخوة وحب الغير والتعاون والعفو والغفران ، ولكن هذا المثل الاعلى لا يدفع الانسان الى الضعف والمسكنة بل « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ومن بدأك بشر فجاوبه بشر ان استطعت

وبهذا كله كان القرآن اقرب الكتب السماوية الى فهم الانسانية ، يزيدها قوة وعظمة على شريطة الا يدفعها ذلك الى الغرور فينسيها المساكين ويدفع بها الى احضان الشهوات

***

والواقع اننا اليوم امام نهضة اسلامية جديدة ، من حظ الحضارة المعاصرة ان تؤيدها كل التأييد وان تغذيها ما كان الى ذلك سبيل ، فان في عودة الاسلام الى حضارته السالفة وعزه الغابر ثروة انسانية جديدة تفيض على العالم الحديث جلالاً وجدة وعمقاً وحياة



— ٨ —

الاسلام واوربا

تضطرب النهضة الاسلامية المعاصرة في ثلاثة مظاهر والوان، وهي مظاهر ليست بنت ساعتها، ولا نشأت فجأة واستطارت بين الناس دفعة واحدة، وانما هي عمل سنوات، وتفكير جماعات عديدة، رأت في هذه الالوان الجديدة مظهراً جديداً من مظاهر الجدة المعاصرة، والتقدم الحاضر فراحت نوطد لها الامر، وتمكن لها من الحياة والذيوع والانتشار

نشأت حركة الاصلاح في الاسلام في القرن التاسع عشر لما ضاق بعض رجالات الاسلام ذرعاً بما يتهم بـه الاجانب الدين الاسلامي من انه السبب الوحيد في ضعف الامم الاسلامية وعدم استطاعتها تقدماً ونجاحاً، فراحوا يعملون لكي يكون للاسلام ما يستحقه من مركز عالمي في الحضارات الحاضرة يريدون ان يعودوا بالاسلام الي سابقات اعوامه وماضيات ايامه

وفكر آخرون في القوة التي تمكنها وتغذيها وحدة اسلامية عامة تجمع بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها لا فرق في

ذلك بين عربيهم وعجميهم وقريبهم وبعيدهم ، ودون ما نظر الى الاغراض السياسية والمنازع الخاصة فنشأت عندئذ فكرة الوحدة الاسلامية

واخيراً ظهرت الفكرة الاستقلالية بعد الحرب ظهوراً قوياً في الهند والمغرب والبلاد العربية ، وقد اخذت كل هذه الامم الاسلامية تنفر الى حرياتها وتطالب باستقلالها ، وتصرف للوصول الى ذلك جهوداً عظيمة وتضحيات كثيرة

ويظهر اليوم ان كل هذه القوى قد اتحدت للوصول الى الغاية الفردة والمثل الاعلى الذي ينشده كل مصر اسلامي ومن الحق ان ينظر الى هذه الجهود الجبارة بعين العناية ، وان يترك لها المجال للوصول الى اغراضها ، لتقف على الاقل حائلاً بين البولشفية المنكرة ، ولتمنع هذه من غزو الحضارة المعاصرة والعمل على هدمها ومحقها ، لان في اتحاد الاسلام والبلشفية خطراً واي خطر ، ومصيبة قد لا يستطيع المرء التكهن بنتائجها ومصايرها

ولكن الاسلام يقف حتى اليوم حائلاً بين البولشفية وبين ذيوعها وانتشارها ، وهو في ذلك يدافع عن المسيحية ويدافع عن الاسلام

ولرب سائل يقول « ماذا يكون مصير الاسلام في المستقبل ؟ » وقد اجاب على هذا السؤال كاتب معروف بسؤال آخر

فقال : ماذا يكون مصير اوربا ؟

والواقع انه لو تعود الديموقراطية الاوربية الحاضرة الى نفسها – اذا كان الى ذلك سبيل – وتعلم ان الفائدة من الاتفاق مع الاسلام ومساعدته هي اعظم بكثير من استعباده والسيطرة عليه والوقوف بوجهه . وان اسباب التفاهم والاتفاق بينهما اعظم بكثير ايضاً من اسباب الخلاف والشقاق، لكان بامكان المرء ان يحكم على المستقبل حكماً مليئاً بالاطمئنان والايمان والرجاء

ولكن الواقع غير ذلك ، وسوء التفاهم بين الاسلام واوربا يزداد قوة ، ويضطرب خصومة، ويحتدم ناراً ، وهي حالة مؤسفة، لانه ليس من مصلحة الحضارة الاوربية القائمة ان ترى الى جانبها هذه القوة الاسلامية الغاضبة الناقمة الصاخبة تتهددها بالخطر المداهم والشر المستطير

واذا تمكنت اوربا من الحياة والاطمئنان الى مصايرها اعواماً عديدة ايضاً ، فهل يكون الاسلام في المستقبل والحالة هذه خطراً داهماً يهدد اوربا ويهدد نفسه بالانقراض والفناء ، ام انه يكون لدى الامم الغربية في افريقيا وغير افريقيا داعية تقدم واصلاح كما كان في ماضيات ايامه ؟!

هذا سؤال يصعب الجواب عليه ، لتعقده وتعلقه بكثير من المسائل والموضوعات الخطيرة والسياسة الحاضرة ، ولكن الواقع

هو ان الاسلام اليوم امام نهضة عالمية خطيرة ، وان من الحق والحكمة والمصلحة الاتفاق معه ومساعدته على اخذ مكانه الغابر في الحضارة المعاصرة ، فان الاسلام قوة لا يستهان بها والشعوب الاسلامية تكون عضداً عظيماً للفلسفة العلمية المعاصرة ، تغذيها وتقويها وتدفعها الى الابداع والخلود

انتهى الكتاب



فهرس الكتاب

فهرس الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٢	العربية	الغربية
٣٣	١٦	سواء	سوى
٣٧	٧	مواطن	موطن
٤٢	١٤	احرى	اخري
٤٥	٧	بيكه	بيكة
٤٥	١٧	تؤدي	توءدى
٤٧	٥	الحجارة	الحِجابة
٤٨	١٤	ذرع	زرع
٥٧	٢	غزالتا	غزالتي
٥٧	١٥	عذراء	عذراً
٥٩	١٢	ابرهة	لابرهة
٦١	١٤	يتحرون	يتجرون
٦٢	٢	بينهما	بينها

وهناك اخطاء غير هذه لاتخفى على القاريء النابه ٠



DATE DUE